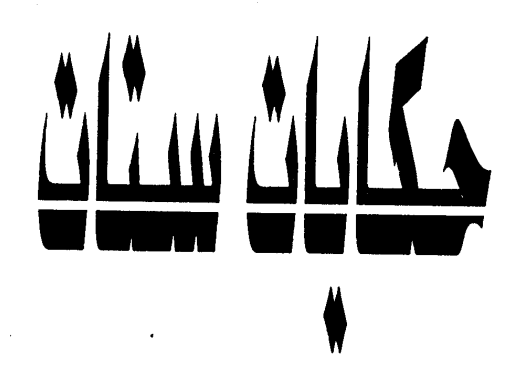


حكايات ستات

مشكلات اجتماعية

مصلح محمد

يطلب من

دار حراء

٢٣ ش شريف ت/٣٩٢٨٩٦٣

القاهرة

اسم الكتاب : حكايات ستات

« مشكلات اجتماعية »

المؤلف : مصلح محمد

التوزيع : دار حراء

العنوان : ٣٣ ش شريف - القاهرة

تليفون : ٣٩٢٨٩٦٣

الطبعة الاولى ١٩٩٦

حكايات ستات

الفهـــرس

مقدمة

الصراعات الاجتماعية وحوادثها من بدء الخليقة وهى تعيد نفسها علي ساحة الإنسانية على مدار الزمن ... ربما بنفس تفصيلاتها ... وربما زائدة أو منقوصة .. المهم أنها بأى حال تتكرر وتتداول بين الناس .. فالناس هم الناس بكل نزعاتهم النفسية والاجتماعية .. إنما تبقى بينهم الفروق الحضارية ومكتسباتهم الثقافية والإنسانية من طبيعة وظروف حياتهم المختلفة .

وسر أغلب الأحداث الاجتماعية إن لم يكن جميعها عند المرأة .. نعم .. عند المرأة .. أليست هي مركز الصراع ؟! .. من جمالها وتكوينها تنطلق الشرارة .. شرارة الميل والرغبة والسعى للاحتواء .. بل هى ركيزة التكوين الاجتماعى فى هيئته كأسر أو عائلات ...

لذا فعندما تبوح المرأة .. بقصد أن تتجلى الحقيقة فى بوحها .. ما لها وما عليها فى وقائع وتفصيلات صراعها الحياتى .. عندئذ يجب أن

ينصت المجتمع .. كل المجتمع .. رجاله .. بقية نسائه .. شبابه .. فتيانه .. وفتياته ، فهى فى بوحها جامعة تطرح درسها من مادة الواقع ودقائقه .. فرصة ، من لم يهتبلها فوّت على نفسه جل استفادة يمكن أن تنعكس آثارها على صميم حياته .. فلا نتائج بغير مقدمات تؤدى إليها .. وسلوكنا اليومى ما هو إلا مقدمات فى تصاعد لتصل بنا يومًا إلى نتائج ....

لنضع أعيننا على تجارب الآخرين ، ربما كانت فى حياتنا وحياتهم مقدمات متشابهة فنحذر نفس النتائج !! .

مصلح محمد

١٠

يا نساء أحذرن النساء

ماذا تفعل وقد وقع زوجها فى شباك امرأة أخرى ؟! .. أتقف مكتوفة الأيدى ؟! .. أم تصارع غريمتها ؟! .. وكيف ؟ .. لقد وضعت يدها على حقيقة : فمن النساء من تعشق رجلاً عشقاً منها للخيانة ذاتها وليس تمنياً أو طمعاً فى أن تكون يوماً له وحده .. الرجل هنا وسيلة . محض وسيلة لإشباع تهافتها الخيانى .. وهناك من تحب الرجل حب الفلاح لبقرته .. يصح أن يرعاها فيدر لبنها لكن من غير المعقول أن يتزوج من بقرته الحلوب !! .. لقد عقدت العزم على أن تثأر لبيتها وكرامتها .. خططت .. أعملت ذكاءها فانتصرت .. إنها إمرأة تساوى كتيبة من المقاتلين !! .

* * *

أصررت على أن تكون الغلبة لى هذه المرة .. لن أستسلم .. ليكن صراع حياة أو موت بيننا .. لا أكون ابنة أمى وأبى ولا

استحق لى العيش لو أدعها تسلبنى زوجى كما سلبتنى من قبل حبيبى .. لشد ما يدهشنى أن يرصد القدر هذه المرأة تحديداً لتكون غريمتى فى رجل لمرتين !! .. فى المرة الأولى سحقتنى وفازت به .. لم يكن حبيب عمر فحسب ، عصام ، ابن عمى الكبير ومبعوث رعايته وكفالته لبنات شقيقه الأربع .. أنا البكرية .. وهو رجلنا الذى يدق بابنا فأية منهن تفتح الباب وأفتح أنا قلبى لتتلاقى دقاته مع دقات قلبه .. جميعهم يباركون تفاهمنا وتجاذبنا .. ماكنا لنطيق افتراق يوم .. يوم ظهور نتيجة شهادته النهائية تمنى على والده أن يبدل هدية نجاحه من سيارة ذات موديل حديث إلى سوار من الماس يقدمه شبكة لى .. لم تسعنى الدنيا فرحاً بخطيبى الذى قدم الارتباط بى على أى إغراء .. و .. بقى عامان لأنهى دراستى الجامعية فنتزوج .. لكن .. ما هى إلا شهور قليلة حتى ذهب كل الحب إدراج الرياح .. احتوته أخرى فعاد كالمسحور فاقداً ذاكرته العاطفية ! .. لكأن قلبه لم يدق يوماً بحبى وما كان بيننا حلم يكبر يوماً بعد يوم !! .. كالمحموم يصرخ فى كل الوجوه بأنها احتياج عمره ! .. افترقنا وما بقى منه فى ضمائرنا سوى ابن العم المعلول بسحر تلك الغريبة عنا ! ..

قال العم : ، لنعتبرها يا إبنتى لوثة ألمت بعقله .. ليكن لك فى غيره خير منه ، .. و .. فيما عدا الحب بينى وبينه ظلت مآخاته لشقيقاتى .. فوحدى من كل الناس خسرته .. خسرت أعز ما فيه

حبه لى الذى إنصرف لأخرى صارت زوجة له .. وما عاد لى غير أن أقبل بمنزلة ابنة العم التى هى بمثابة « أخت » .

ها هى للمرة الثانية تبارينى فى رجل ! . زوجى ! .. أمدفوعة هى بقصد الإعتداء على نصيبى فى الحب والحياة تحتال عليه وتلقفه من بين يدى .. من صدرى .. تجتثه من روحى وفؤادى ؟! .. أم هى مصادفة .. أليس من العبث أن أبحث عن القصد والمصادفة فى ذلك؟.. من الأحرى أن أبحث فيما يردعها ويوقفها عند حدها .. يردعها ؟! .. يوقفها ؟! .. لا .. بل لن أفوت فرصة لإبطال مفعولها .. لأنتقم من هذه المرأة الملعونة .. لن أفعل مثل الأخريات وأقف مكتوفة الأيدى أو أجعل صراعى مع زوجى لكونه يخوننى معها فينتهى بنا الأمر إلى انفصال وأخسر أمامها للمرة الثانية .. هذه المرة موقفها أضعف من المرة الأولى .. ليست بالفتاة التى تختطف شاباً مازال حراً من زواج فعلى .. هى الآن إمرأة متزوجة .. عاشقة لغير زوجها .. تخونه كل يوم وكل لحظة .. موقفى الأقوى رغم كل شئ .. لكن الأمر يحتاج إلى حيلة بارعة .. إن إصطدامى بزوجى لن يعود بأى نفع .. لابد من إصطيادها هى .. اصطيادها فى شرك تدفع فيه الدينين القديم والجديد معاً .. لكن .. كيف وقد وفرت مناخاً آمناً لغرامها بزوجى ؟!

لقد بذلت كل جهد فى التقريب بين زوجى وزوجها حتى صار

مستشارهما الإجتماعى والقاضى الذى يرتضى الطرفان نصحه وحكمه فى خلافاتهما الزوجية !! ..

أصبح أقرب إليهما منى ! .. أغلب وقته فى صحبة عصام بمكتبه أو سهران معه وزوجته فى بيتهما .. الملعونة جعلتها حلقة مقفلة يصعب إختراقها !! .. لابد من حيلة مبتكرة .

ذات يوم استأذنت من مديرى لأنصرف من عملى لما شعرت بإرهاق بعد وصولى بساعة ونصف الساعة . مررت على الحضانة القريبة فأصطبحت طفلى عائدة به إلى البيت .. حاولت مع مدخل الشقة فلم ينفتح .. أيقنت أنه مغلق من الداخل بالمزلاج .. رحت أدق جرس الباب .. أتانى صوت صلاح زوجى من الداخل .. « حاضر .. حاضر » .. ثم إنفتح الباب .. قال : « تأخرت عن عملى فأثرت الراحة بالبيت » .. لدينا ضيفة فى الصالون .. « نرجس » زوجة عصام ابن عمك .. أحسست بالنار تضطرم بصدرى .. زلزال يقلبنى ويبتلعنى فى جوفه .. وددت لو أسحب هذه النرجس من شعر رأسها وأجرجرها فوق الأرض حتى أصل بها إلى بيت زوجها .. أو أصرخ فأجمع بشر الدنيا ليروا كيف تمارس الخيانة الزوجية فى بيتى .. لكن .. بماذا يفيد كل ذلك إن أنا فعلته ؟! .. إننى فى اللحظة هذه افتقد لأى دليل .. نرجس تجلس فى الصالون وقد أصلحت من هندامها وشعرها ولا غرابة فى أن يضم صالون بيتنا قريبة لنا وإن كان ذلك فى غيابى .. من اليسير أن تختلق أية

ضرورة دعتها للحضور .. ثم أن زوجها بالذات لن يجد فى ذلك أية غضاضة .. إن الغشاوة التى وضعتها نرجس على عينيه جعلته قبل بأن يعود إلى بيته فيجد صلاح حاضراً فى غيابه فهى ذاتها التى ستحكم موقفه إن هو علم بأمر ترددها على بيتى فى غيابى ! .. لا .. ليس من الحكمة أن أتفاعل مع الموقف على هذا النحو .. ليكن مدخلاً لإختراق حلقتهم المقفلة فحسب .. دائماً الخطط غير التقليدية تتطلب سلوكاً غير تقليدى ! .. رحبت بنرجس .. ضممتها فى صدرى وبادلتها القبلات .. مكثت استمع لها ولصلاح فى تغاب وهما يعالجان سبب وجودهما فى غيابى .. إختلفت مع عصام زوجها بسبب خادمة!! إستجلب عصام خادمة لترعى شئون البيت وتساعد نرجس .. فيما ترفض نرجس فكرة الإستعانة بخادمة جملة وتفصيلاً .. كل يوم فى نزاع مع الخادمة ومع عصام ! .. أبديت قناعة بموقفها خاصة وأنها ربة منزل متفرغة لبيتها ومن ثم ليست هى فى حاجة لخادمة .. وجدتهما متحمسين لرأيى سعداء كل السعادة بقدر عظيم من البلاهة تصوراه قد إلتبسنى !! ..

تألمت كثيراً لكرامتى المهدرة وأنا أشم رائحة عطرها المتميز فوق وسادتى ومفرش سريرى ، والذى ظل لعدة أيام يذكرنى بأن نرجس قد تمرغت نشوانة فى فراشى وفى أحضان زوجى .. وأيقنت أن هذه محض بداية - إن لم يحسم الأمر هناك بطرد الخادمة - ليكون مخدعى هو ملاذهما الأخير لممارسة خيانتهما ..

وما حسبته قد وجدته .. كلما أخذت رائحة عطرها فى الزوال من فوق وسادتى ومفرش سريرى عادت من جديد تنبعث فى أنفى نفاذه تدل على مواقعة قد حدثت وأنهما قد صالا وجالا فوق مخدعى ! .. شعرات من شعر رأسها الذى تبالغ فى الإعتناء به وتلوينه خصصت لها علبة صغيرة أجمعها فيها حيث رصدت تزامن تناثرها فوق الفراش مع مرات إشتداد رائحة عطرها .. وهو .. صلاح زوجى . أذوب حسرة كلما وقع نظرى عليه .. أهذا هو صلاح عشرة سنوات الدراسة ؟! .. الشاب الوسيم الذى طالما تهافتت البنات على الإرتباط به بينما أتجاهل أنا طوال عامين دراسيين محاولاته للتقرب إلى ؟ .. كنت مرصودة خلالها على حب عصام ابن عمى ولا أرى فى الدنيا غيره رجالاً .. يوم عدت للدراسة فى السنة الثالثة وكان عصام قد تزوج ، منحته فرصة عمره التى ظل يتحينها .. أن يتقرب إلى وأسمع منه وهو يبثنى مفردات هيامه بى وحلمه فى أن تجمعنا رحلة عمر .. كان جاداً صادقاً يتحدث عن مستقبله ونجاحاته وكأنه يقرأ فى كتاب مفتوح أمام ناظريه ! .. تخرجنا أشتغل معيداً فى الجامعة كما خطط مستقبله ونحن فى البكالوريوس . ثم .. تقدم لخطبتى فى الموعد الذى حدده .. وتم زفافنا فى المهلة التى قطعها على نفسه بمعونة من والده ميسور الحال .. وجدته عوضاً قدرياً عن كل ما عانيته من قبل .. إتخذته أباً وأخاً وزوجاً .. اليوم أراه يتبدل أمام عينى .. يكذب .. يستمرئ إستغفالى .. ينصرف عنى .. يتملكه مزاج

عـصـبى .. ينصـهـر .. ينحف كـالمسلول .. يأفل بريق عـينيـه الذكيتين .. تتغامق بشرة وجهه ويشحب كالمصاب بلعنة .. شتان بين صلاح زوجى وصلاح عشيق نرجس !! .

عمدت لأن أثير معه حواراً هادئاً رتبت له وقصدت أن أوجهه لوجهة محددة :

ـ صلاح .. حبيبى .. لكم يعذبنى حالك الآن :

ـ ما له حالى الآن ؟! .

ـ عـهدت فيك خصالاً عظيمة .. الصدق .. الثبات على المبدأ وقوة الشخصية .. و ..

ـ هـا .. والآن صـرت كاذبـاً . بلا مبـدأ . ضعيف الشخصية .. قولى ..

ـ لا .. لم أقل ذلك .. إنما .. أرى شيـئـاً فـوق إرادتك .. ولنكن واقعيـين .. ثـق أننى أحبـك .. أتقبل أى شئ ترتضيه .. أضحى بعمرى من أجلك . لكن ..

ـ لكن ماذا ؟! .

ـ تلزمنا المصارحة .. مواجهة عقلانية أؤكد لك أننى سأعمل على أن أجعل مكسبها كله لصالحك .

ـ ليكن .. هات ما عندك !

ـ حسناً .. أحد لا يملك قلبه فى يده .. للقلوب شئون كما يقولون

.. قد يميل قلب الإنسان لآخر رغم حبه لزوجه .. بعضنا يفلح فى وضع الحواجز بين كيانه وميله .. وبعضنا يفشل فيظل يجمع بين حبه لشخص وميل لآخر . هنا يختل التوازن وتصعب الحياة .. إن إمرأة مثلى تستطيع أن تعيد لزوجها توازنه بعقلانيتها وتواضعها وإقرارها الواقع مهما كان ..

- عظيم .. وماذا ترين ؟!

- أراك تميل لأخرى .. بل تنامى ميلك فأصبح حباً وعشقاً .. أعلم أنك رغم ذلك تحفظ لى الحب . إن ذلك يحدث رغم إرادتك .. أشعر بضميرك يعذبك .. يكاد يخنقك .. تذبل .. تزوى من اصطراعكك معه .. أتعذب بدورى لأجلك ..

- (بكبرياء) .. لنواصل ! .. ما دليلك على ما تعتقدين ؟! .

.. تمالكت .. بالكاد ! إحتفظت بهدوئى .. يممت ناحية مخدعى .. فتحت صوانى .. دسست يدى تحت أرديتى فخرجت بالعلبة الصغيرة التى أجمع فيها شعرات من رأس نرجس .. تأبطت وسادتى . عدت بها إليه .. قدمت له الوسادة ليشمها . « هذا عطر نرجس المتميز يدلنى على مواقيت حضورها .. وهذه شعرات من شعر رأسها بألوانه المتماوجة دأبت على جمعها بهذه العلبة بعد كل مرة تتمرغ فيها فوق فراشى » .. بهت .. زاغ بصره .. عمدت لأن أمتص غضبة «مكابرة » منه .. من فورى قلت : أدرك أن ذلك فوق إرادتك .. لنكن واقعيين .. أناس حضاريون نحن ..

تزوجها فيعتدل ميزان كيانك .. أقسم إنني رغم حبي الشديد لك أقبل بأن تجمع بيننا زوجتين .. بل اعتبر ذلك أكبر دليل على حبي وإخلاصي لك .. فقط تخلص من الشعور بالذنب .. كف عن إغضاب الله ..

ماذا يتوقع من رجل وضعته زوجته في موقف مثل الذي وضعت فيه صلاح زوجي الآن ؟! .. حقيقة لا أعرف ؟ .. أيحزم إرادته ويثوب إلى رشده فيقلع عن المرأة التي أدمنها إزاء ما تبديه زوجته من حنو عليه ورفق به وإخلاص له ؟! .. أم يتلقف عرضها وقد بلغ منها الأمان ويبدأ في السعي للزواج من عشيقته والجمع بينها وبين زوجته ؟! وحسبت إيجابية نتائج كل منهما على حياتي ..

انفعل صلاح المحموم بعشق نرجس قائلاً : « ها ها .. بالله عليك كيف يتسنى لي أن أتزوج بإمرأة متزوجة من رجل آخر ؟! .. » يالها من تعاقبات للحوار تجري في مجال خطتي ؟! .. تلقفت سؤاله المندهش معقبة : « من النساء من تعشق رجلاً عشقاً منها للخيانة ذاتها وليس تمنياً أو طمعاً في أن تكون يوماً له وحده .. الرجل هنا وسيلة .. محض وسيلة لإشباع تهافتها الخياني !! .. وهناك من تحب الرجل حب الفلاح لبقرته .. يصح أن يرعاها فيدر لبنها لكن من غير المعقول أن يتزوج من بقرته الحلوب !! .. والرجل الذي تهمه رجولته كما تهمه فحولته عليه أن تكون له

وحده مهما كلفها ذلك من تضحيات .. يتثبت قبل أن يضع كل ما بوسعه من روحه ودمه فى عشقها ..

أما أن يكون وسيلة لتهافت خيانى أو محض بقرة حلوب فهذا كفيل بأن يصرفه عن عشيقته المزعومة . أقول .. أعرض عليها أمر زواجكما الذى يتطلب منها أن تحصل على طلاقها من عصام فإن هى وافقت وسعت لذلك سعيه فهى جديرة بأن تشاركنى فيك ..

أما إن رفضت وأثرت أن تبقى فى كنف عصام الأقدر منك مادياً فى حين تروح عن نفسها الخيانية بعشقك فلا أظنك على ما عهدت فيك من خصال تقبل بأن تكون محض ثدى فى فم شب على الرضاع ولم ينفطم فتقدم من صلبك وكيانك ما يذهب إدراج الرياح وتتعذب وأتعذب معك ولأجلك ..

هل بقى فى صدر هذا الرجل أى قدر من الحب ؟ .. إنه يتحرك أمامى وفى ضوء مقترحى وكأنى محض صديق يجالسه فى مقهى ولست إمرأة من لحم ودم وأحاسيس شريكة حياة وبيت ترعى طفلاً من صلبه !! .. هوسه بترجس وضعلى بفاترينة باردة إمرأة من الكاوتشوك أو الفخار ! .. من أين تستمد هذه المرأة سطوتها على أفئدة وعقول الرجال ؟ .. العيب فيهم أم السحر فيها ؟! ..

أعرف أن إمرأة جميلة راغبة ومناخاً متاحاً يفلان من عزيمة أى رجل .. لكن ذلك ليخطئ فى نزوة ليس ليهيم ويعشق ويتمنى

العشيقة الخاطئة زوجة ؟! .. أهو الحب معادل الجنس ذاته ودقات قلوب الرجال ما هى إلا نبض متهافت للآلة الغريزية ؟! .. لماذا يسمونه حباً مادامت أنوثة لعوب وعيون متحللة داعية بطبيعتها تقهره وتستحل عباءته وإسمه ؟! .. آه .. أو لست أنا من الأنثى فى شئ سوى أن حملت ووضعت ؟! .

وقع الطلاق بالفعل بين عصام ونرجس بعد عدة مصادمات افتعلتها نرجس !! .. بحق أثارت دهشتى من قدرتها على تزهيد الرجل فيها بنفس السرعة التى جعلته يقع فى غرامها ويبيع الدنيا من أجلها !! .. وإنتعشت روح صلاح زوجى لتحرر نرجس من قيد الزواج .. فى فترة العدة كانت قد أعدت مسكناً جديداً ، لزيجتها القادمة .. ما أعجب ما ينطوى عليه ذلك من معان ؟! .. إختطفت خطيبى وحبى الأول .. ومن ماله الذى إختلسته فى حياتها معه أعدت مسكناً تتزوج فيه من زوجى ؟! .. ألست محقة عندما أقول أن هذه المرأةمدفوعة بقدرية عجيبة لتسمم حياتى وتحيلها جحيماً وكأنها تترصدنى بالذات دون غيرى من نساء الدنيا ؟! .

وتزوجاً .. نعم تزوجاً .. ليلتها أقسمت على ألا أكون له أبداً .. حقيقة إنحرفت خطتى عن مسارها بقبول نرجس التضحية بزوجها الطيب الغنى والوسيم أيضاً من أجل الزواج بصلاح وكنت قد حسبت أنها سترفض التضحية فيتحول صلاح العشيق إلى خصومة ولدد ويعمل تلقائياً على فضح أمرها وهدم حياتها إنتقاماً منها ..

ومع ذلك بقيت مساحة أدمغ فيها إنتصارى فتشعر هى أن طعماً من صنعى وتدبيرى قد إبتلعته ..

فى تلك الفترة إفتقد عصام إبن عمى صديقه الأقرب إلى قلبه ومستشاره الإجتماعى دون أن يدرى سبب إختفائه ؟! .. جاءنى يسألنى عنه .. قلت : « أعلم سر إحتجاجه عنك .. أنه لسر عظيم ولكنى لن أبوح به فى غير حضور عمى » .. حاول .. أصررت على موقفى.. عاد بعمى .. قصصت عليهما كل معاناتى وما آلت إليه علاقتهما بعد ممارستهما الخيانية التى دللت عليها بأثر من عطرها النفاذ مازال عالقاً بوسادتى .. بشعراتها المموهة فى علبتى الصغيرة .. توسلت إلى عمى أن يذهب إليه فيرغمه على تطليقى بكل ما وسعه من وسائل ..

كان طلبى للطلاق وتطليقى بالفعل من صلاح أول إشارة واضحة بأننى صانعة الطعم .. فهى من غير شك كانت تعلم منه بتطورات الموقف بينى وبينه خاصة تحفيزى له على الزواج منها وقبولى مشاركتها لى فيه !! .. أما الذى لم تعلمه حتى الآن وستتكشفه فيما بعد هو أننا فى الفترة الأخيرة من زواجنا كان والد صلاح قد تردت أحواله المادية بحد حجب عن صلاح مدده فإستحال عليه أن يلبى دون مساهمتى براتبى مطالب بيتنا .. فكيف لها أن تصمد معه إزاء عجزه المادى وهى قابعة بالمنزل دون عمل وقد إعتادت فى كنف عصام حياة رغدة كل شئ فيها ميسر لرغباتها ؟! .. والذى يفوق هذا وذاك هو الذى مازال فى

طور التوقع ! .. ألا وهو عودة عصام إلىّ وزواجى منه ..

والآن ما هو الحال ؟! .. دفع عصام بكل من يعلم أن لهم لدى منزلة خاصة وإحترام .. تقدمهم عمى العزيز .. يشفعون له عندى ويعربون عن أسفه معتبراً نفسه السبب المباشر من البداية فى كل ما عانيته ..

تزوجته .. نعمت بحبه صافياً من جديد .. أحسست الحماية والأمان مع حبى الأول وقد تحصن وإكتسب مناعة ضد الغزوات النرجسية .

وما هى إلا فترة قصيرة وتداعى العشق هناك وتواترت أخبار الصراع بين العشيقين الزوجين نرجس وصلاح .. مصادفة لاقيت شقيقة صلاح الصغرى أسرت إلى ببعض ما يدور هناك .. قالت : « تصورى يا أبلة .. أنها تطرده من بيتها .. سمعتها مرة تقول له (أنت أكبر مقلب شربته فى حياتى .. الله يجازيها إللى كانت السبب) .. لعلها تقصدك يا أبلة ؟! .. أجبتها : « نعم يا عزيزتى تقصدنى كما قصدتها » .

* * *

-٢-

سكين الرجل الباردة

، جـرف زوجـهـا تيـار التطرف .. تقـوضت أركان البيت الهادئ من هوسه بأفكار جماعته وهوجة الحرمانية .. هانت زوجته حبيبة عمره .. هجرت مدينتها إلى القاهرة تاركة وراءها تجربة زواج فاشلة .. لكن .. كانت معها ثقتها بنفسـها وإيمانها بأنها تستطيع أن تصنع مستقبلاً عظيماً بلا رجل .. لتكن أعظم من كثير من الرجال .. نجحت .. تعاظمت مكانتها .. ظلت رؤية الأهل فى أن الزواج ضـــرورة إجتماعية تطاردها.. أذعنت .. سعت للزواج فوضعت رقبتها تحت سكين الرجل الباردة! .

* * *

وجدتنى فى حاجة لرجل .. زوج .. لطالما إلتقيت وحاجتى هذه وجها لوجه .. تصرخ فى وجهى بدفوع واقعى وأراوغها فتنسحب من المواجهة .. تنسحب ؟! .. لا .. بل أنسحب أنا بالتشاغل عنها وقناعاتى المتولدة عن مرارة تجربتى الأولى ..

ففى دنيا الرجل من السهل أن يتبدل كل شئ .. العقل إلى جنون .. الإلتزام إلى استهتار .. المودة إلى صراع قد يؤدى إلى موت حقيقى أو إلى وأد الكيان داخل الجسد .. كل شئ ممكن .. وتبقى المرأة .. الزوجة المقيدة بعقد هى ضحية هذا التغيير .. تستلم فتذوب فى كف ـ مجنون أو تثور وتتملص فتخرج من بين أصابعه الغليظة وحيدة تعالج الجراح وتبتلع المرارة لتبدأ من جديد رحلة إثبات الذات التى افتقدتها طويلاً فى عالم رجلها المتبدل !! ..

عقدة ؟! .. لا .. بل هى استنتاج من تجربة وممارسة .. عن حب وأول الحب هزل .. نوى التمر ومشاكسات الجيرة المواجهة .. تجاوزنا الهزل لنحلق فى سماوات الحب المفتوحة .. افترشنا أعلى سحاباته .. سحابات تمطر شهد التوافق .. سحابات نقية شفافة تشف شمس الأمل حقيقة وحلماً بلقاء يطول لا نفترق بعده .. مدعومة مسيرتنا بمباركة عائلتينا ..

يوم قلتها : « زوجتك نفسى » كنت أحس أبعادها .. منحتك روحى وعقلى ووجدانى بعشق لدور الزوجة المحبة المتفانية ذوباناً فى عالم زوجها » .. وفى ضمته الأولى عند إنفرادنا زوجين سمعت صمته يحدثنى : « أحبك .. كل مودتى لك .. الزواج إمتداد طبيعى لحب حقيقى .. سأكون دائماً عند تصورك فى زوجاً حضارياً .. شئ لن يمس حياتنا بغير التطوير والتسامى فوق صروف الحياة المختلفة » .. آمنت بكل ما إستقر فى إحساساتى

وراحت الأيام والسنون تؤكده .. طفلانا ينموان تحت مظلة حبنا .. كل قطعة من أثاث البيت مستها يد الحب كأجمل ما تكون حتى وافتنا رياح التغيير .. وأى تغيير ..

مهندسى المثقف المحب فى تحضر تبدل ! .. انصرف عن حبه .. كثرت إنتقاداته ومآخذه على شكل وأسلوب حياتنا .. كسا الشعر أغلب مساحة وجهه .. خرج من زيه الحضارى .. نهج وشكل جديدين لحياتنا .. أطاوع و . أطاوع وعند حد أحاول وأرفض عن إقتناع .. يحاول وأرفض . يقسو .. يَخْشُنْ .. يضرب .. سقطت سحابة الحب التى حملتنا لسنين وابلاً كثيفاً مسوداً على أرض واقعنا فجعلتها زلقة تعجز أقدامنا عن التشبث بها .. تمرغت فى وحلها أرجوه أن يرمى بى فوق طوار أو أرض أخرى بعيدة تحملنى وحيدة وأدرب ساقى كيف تحملانى من جديد ..

وتحــقق الحلم .. يوم النطق بالحكم .. طلقت منه .. كم بدت غالية عزيزة نسائم الحرية .. أخيراً وقفت أتنسمها وهى تلفنى من كل إتجاه .. لم ألتفت لكلفتها ، فالإستمرار فى أسر الخبل أعلى كلفة .. و .. أيام وتكشفت مقتضيات جديدة لحريتى العائدة .. الجميع يلفظوننى ! .. أبى .. أمى .. أخوتى .. الذين تقاعسوا عن مواجهة غشم التبدل فى زوجى لا يروقهم أن أستنقذت نفسى من براثنه!! .. بقى صدر خالى المتفهم . هجرت مدينتنا .. فى

القاهرة لذت به . بيت متواضع .. إمرأة متسلطة حادة الطبع تعانى عجزها عن الإنجاب .. طوال النهار موزع خالى بين عملين ..

لم أستطع بأى حال إدراك أسباب اصطبار خالى عل حياة كتلك ! .. لكنى أدركت عن معايشة دوافع مساندته لى فى صراعى مع زوجى .. المهم .. خرجت للعمل .. أكثر من عمل .. متجر أقمشة .. بوتيك .. حتى أستقر بى المقام فى إحدى مكتبات وسط المدينة .. عمل جد مشوق .. أحببته لما تفهمت دقائقه وتبدت موهبتى فى تسويق الكتاب .. و ..

يوم اختلفت مع صاحب المكتبة وتركت العمل لديه لم أكن أحتكم على أكثر من خمسمائة جنيه .. لكنى كنت قد أحرزت سمعة طيبة فى أوساط بعض الناشرين والمتعاملين فى سوق الكتاب .. فى الأيام القليلة التى مكثتها فى البيت بدون عمل شب الحلم بداخلى .. لطالما تصورت نفسى أعمل فى إستقلالية .. أسوق الكتب لحسابى ليكبر العائد المادى وتنمو مدخراتى ..

أشترى شقة أستقل بها وأشكل عالمى الخاص .. لم يطل ترددى أمام المخاطرة .. قررت أن أبدأ .. يوماً عن يوم إتسعت دائرة تعاملاتى وأشتهرت فى أوساط الناشرين كموزعة مجتهدة حسنة السمعة أمينة صادقة .. ورحت أخطو نحو تحقيق حلمى فى الإستقلالية .. مخزن للكتب التى أتاجر فيها .. سيارة نصف نقل وسائق يقودها . عمال للتحميل .. و ..

شقة كبيرة أقطنها أثثتها بأفخر الأثاث وخصصت غرفة وثيرة للمكتب .. لأقل أننى عملياً حققت كل ما حلمت به .. ولكن ما أن استقرت المعاملات وصارت حاجة العمل لى لا تزيد على توجيه التعليمات وعقد الإتفاقات وجدت فراغاً كبيراً فى حياتى ..

أول ما طرأ فى خاطرى هو أن أستعيد علاقتى بعائلتى .. أبى . أمى أخوتى .. دفعت بخالى يمهد لذلك .. عاد مخففاً يردد على مسامعى عباراتهم الموجعة : « ماذا فعلت الآن / .. لقد تمردت على حياتها . ابنتنا نحن تقف أمام القاضى تطلب تطليقها من زوجها ؟! .. تاجرة ؟! والتاجرة الناجحة هذه لماذا لم تتزوج حتى الآن ؟! « .. إغتممت . ما أن إنفردت بنفسى حتى بكيت كما لم أبك فى حياتى ..

تكومت فى ركن من سريرى .. رأسى بين ساقى وفى نطاقه عالمى الذى عشته .. رحلة حياة صارت أعز ما فيها مرحلة صعودى للإستقلالية .. تلك المرحلة التى يحقرونها ويشككون فى نزاهتها الآن ! .. لكأن الشرف فى الخنوع ومذلة الإستعباد وتقبيل يد الخبل كلما زاد بطشها !! .. أما أن أصمد . أتحرر .. أنجح .

فذاك لابد وراءه مسلك شائن ؟! .. أكاد أجن .. ألا يصح عندهم ويصدق أن يتزامن التفوق والشرف فى كيان أنثوى ؟! .. حتى لو كان هذا الكيان هو ابنتهم التى خبروها أكثر من غيرهم ؟!

.. أشعر الآن وكأنى ما حققت شيئاً يذكر .. بل لم أجن شيئاً سوى التشكيك فى نزاهتى .. وممن ؟ .. أهلى ؟! .. لكأن الفشل مع رجل أفضل من النجاح بغير رجل !! .. وبقيت كلمة خالى ترن فى أذنى : « قد يغير من موقفهم أن تذهبى إليهم بصحبة زوج لك » .

عبء جديد .. البحث عن زوج !! .. فى البدء كانت الغاية كسر الحاجز القائم بينى وبين أهلى ولكن السعى وراء هذه الغاية أستوقفنى أمام كيانى الأنثوى ملامة مطالبة بفك أسر مشاعرى من قيود تجربتى الأولى .. ورويداً رويداً تبدت مشاعرى إلحاحات أنثوية طبيعية تعبث بسكينتى وحالة السلام التى كنت أعايشها مع نفسى .. تجسد النقص حياة مستحيلة بغير رجل .. مبررات وقناعات ما كانت لتمر محض مرور على خاطرى من قبل .. فها أنا التى كنت أزاحم الرجال فى سوق العمل ناسية أو متناسية تماماً كونى إمرأة بل وأفلحت فى أن ألزمهم مبادلتى أسلوب التعامل الرجولى .. ها أنا أتلهف فى داخلى إلى مغازلات ومطاردات بعض الذين كانوا يفعلون ذلك منهم عند بداية تعاملاتى فى السوق ! .. أقترب الآن من الأربعين وتتملكنى روح مراهقة !! .. حقيقة أصبح الزواج مطلباً شخصياً أكثر منه مطلباً عائلياً..

الغريب أن أحداً لم يحاول.. أخذ الإحباط يتسلل إلى نفسى ويتملك مشاعرى .. فى هذه الفترة كنت قد إستعنت بسائق السيارة النصف نقل المستخدم لدى فى تدريبى على قيادة سيارتى الخاصة

التى اشتريتها أخيراً .. شاب أعزب يصغرنى بسبعة أعوام .. متواضع فى هيئته لا يتمتع بأى قدر من الوسامة .. ما كان ليروقنى فى أية مرحلة من مراحل حياتى .. لكن ..

ما أن جلست بجواره وتقاربت أنفاسنا حتى شعرت بإنجذاب غريب نحوه ! .. ربما بدافع من إحباطى . وقد يكون لطيبة وصفاء نفس وجدته يتمتع بهما .. لم أتردد كثيراً إزاء فكرة أن أصنع منه زوجاً يحقق الغرضين معاً : معالجة الحاجات كيانى الأنثوى وكسر الحاجز القائم بينى وبين أهلى !! .. وسلكت لذلك مسالكه : التحاور التباسط . المداعبة .. إستفزازه وإثارة المشاعر الرجولية فيه .. التأكيد على قناعتى بأن الحب الحقيقى يذيب كل الفوارق بين الحبيبين ويحل محل عناصر التكافؤ المختلفة بين الزوجين ! ..

و .. بدأت ألمس تجاوبه يتنامى يوماً عن يوم حتى أتانى يوماً يلوح بأنه صار متيماً بى لا يستطيع مفارقتى فكان أن أبديت عدم ممانعة فى أن نرتبط زواجاً بعد أن نتدارس معاً فى لقاء مقبل سبيلنا إلى تحقيق ذلك .. يومها كنا فى طريقنا إلى إحدى دور النشر التى أتعامل معها لنتسوق بعض أصداراتها من الكتب .. فحدث هناك ما لم يكن فى الحسبان ..

لطالما كانت السكرتيرات مداخل حسنة إلى مدرائهن .. لذا حرصت دائماً على أن أرتبط معهن بعلاقات طيبة وصداقات .. استقبلتنى السكرتيرة فنبهتنى إلى غياب مديرها فى سفر إلى

الخارج وأن علىّ ألتقى القائم بأعماله .. وبأسلوب مرح حذرتنى من أن أقع فى غرامه إذ أنها تدخره لنفسها !! ..

تقدمتنى إلى مكتبه ونحن نضحك من عبارتها.. وقفت قبالته فوجدته شاباً يناهزنى عمراً .. هو أقرب إلى نجوم السينما منه إلى رجال ومديرى الأعمال .. أمر لى بفنجان من القهوة .. قال أنه يعرفنى من خلال ملف تعاملاتى مع الدار موزعة نشطة مؤتمنة .. ثم أستطرد « لكنى الآن أرى أمامى وجهاً وتكويناً وصوتاً يصح أن تكون صاحبتها نجمة .. ممثلة . . مطربة » .. ضحكنا .. شعرت نحوه بألفة وكأنها المرة المائة التى أراه فيها ! .. أنجزنا عملنا ووازنا حساباتنا .. تمنيت فى قرارة نفسى لو أن لى مثل خبراته فى مجال الكتاب وتسويقه .. ثم أعربت له عن ذلك صراحة فقال : « اعتبرى نفسك أختا عزيزة .. لك الحق من الآن فى أن تسترشدى برأيى وقتما تشائين » ... و ... انصرفت شاكرة له ..

خرجت من مكتبه مبتهجة الأسارير وكأن عصا سحرية مستنى .. « أى إحساس بالأمان والزهو يمكن أن يتملك إمرأة يكفلها مثل هذا الرجل » .. عبارة رددتها ربما لعشر مرات حتى بلغت سيارتى أمام المبنى الكائنة به دار النشر . جلست بجوار سائقى .. يممت وجهى ناحية النافذة عن يمينى طوال الوقت .. ساهمة .. شاردة ..

أسمعه يثرثر بجوار أذنى اليسرى عن الحب الذى يذيب الفوارق وهيامه بى والعذاب الذى عاناه فترة غيابى عنه داخل دار النشر ..

تعبيرات ساذجة من لسان جاهل وكيان ضعيف .. تمنيت لحظتها لو يمد القدر يداً إلى ذاكرتى وذاكرة سائقى لتمحو أى أثر لحوارات دارت بينى وبينه !! .. ألزمته الصمت بزعم أننى أعانى صداعاً حتى وصلت بيتى وأنا على شرودى فصرفته ودلفت إلى شقتى .. وحدى فى غرفة نومى تتنازعنى رغبة شديدة فى جمع المزيد من المعلومات عن ذلك الشخص الذى إلتقيته بدار النشر .. أمد يدى إلى التليفون ثم أعود فأسحبها إلى أن مددتها مرة وعجزت عن أن أسحبها .. من السكرتيرة الصغيرة محدودة الخبرة إستطعت أن أصل لمرامى : « كريم » ما هو إلا إختصار لاسم عبد الكريم .. عبد الكريم على .. كاتب وأديب معروف وله عدة مؤلفات تذكرت أننى قمت بنفسى بتسويق بعضها من قبل !! متزوج وله ولد وبنت ..

وراحت السكرتيرة الصغيرة تقص على فى عفوية عن أسلوب إدارته المتميز للعمل ونهجه فى إحتواء كل العاملين تحت إدارته .. ذوقه الرفيع .. عباراته اللطيفة المحببة إلى النفوس .. أناقته ورقته ! .. ثم .. كم هى متيمة به وتتمنى ألا تنتهى فترة قيامه بأعمال مدير الدار قبل أن تشغل مساحة فى فؤاده !! ..

دفعت بسائقى للبحث عن مؤلفات عبد الكريم على فى المكتبات

المختلفة حتى عاد إلى ببعضها .. ثابرت على مطالعتها .. أحسست أننى إقتربت من عقله وتفهمته .. شئ بداخلى يحدثنى بأن هذا الرجل لا يصح إلا أن يكون لى أنا !! .. داومت على محادثته تليفونياً .. صار بيننا كل يوم حوار تليفونى حتى بعدما ترك دار النشر بعودة صاحبها من سفره .. كل تفصيلات حياتى قصصتها عليه عبر التليفون .. دراستى .. كيف تزوجت .. إلى أى حد كنت متفانية فى علاقتى الزوجية مخلصة مجددة متفهمة لطبائع الرجل .. كيف طلقت ولماذا ..

حياتى العملية وما إكتنفها من عثرات ونجاحات حتى بلغت مكانتى أحسسته متعاطفاً أحياناً ، مشفقاً فى أحيان أخرى لكنه دائماً يتصور الزوج القادم لى سيأتيلى من عالم الغيب أو تقذف به فى طريقى مصادفة !! ..

وذات يوم أحسست أن « كريماً » أصبح فى مجال تأثيرى وتصورت أنه من العاطفية بحد يجعله يتفاعل إيجابياً مع رغبتى فى الزواج منه إذا ما كثفت من محاولات التأثير فيه .. إخترت وقتاً مناسباً .. عند الظهر حين يصحو جديداً من نومه .. أدرت قرص التليفون .. بلغنى صوته بلفظة « آلو » خارجة من تثاؤبه .. قلت : ـ أنا .. أنا « سارة » يا « كريم » .. تعبانة جداً .. حاتجنن .. أكيد حيحصلى حاجة .. (وفى بكاء إلى حد النهنهة) .. أنا محتجالك .. أرجوك ..

- طيب .. طيب .. هدى نفسك .. أنت فين ؟ .. أجيلك فين ؟

- أنا .. أنا فى بيتى .

- العنوان ؟

- مش غريبة وده مستوى علاقتنا ما تعرفش بيتى ؟! .. أكتب .. شارع ... وأمليته العنوان فوعد بالحضور فوراً .. فوضعت سماعة التليفون وانطلقت أعد البيت لإستقباله .. غرفة المكتب .. الصالون .. حجرة المائدة ..

إستقبلته بعينين دامعتين ، بدا قلقاً متحمساً لنجدتى .. أى أثر ذلك الذى سرى فى جسدى من ربتات يده الحانية فوق كتفى . قدته إلى غرفة المكتب .. تعمدت إبراز بعض مؤلفاته فوق مسطح مكتبى .. أعرف مدى انعكاس ذلك على نفس فنان وعقله . انصرفت أعد القهوة لكلينا .. عدت لأجلس قبالته .. شغوف هو لمعرفة أبعاد المشكلة .. شعرت أننى قد بلغت به حداً بعيداً من الإثارة .. أعرف مدخلى .. رحت أسلكه قائلة :

- أنت أدرى بظروفى .. ما من أحد غيرك يعلم شيئاً عن تفصيلات حياتى .. مشكلتى هذه تعقدت وعجزت عن قرار فيها رغم حاجتى الملحة لحسمها .. إننى إمرأة .. متعلمة .. أحسبنى مثقفة .. أملك البيت والمال والعمل والشباب . ولكن .. لم أصادف ذلك الرجل المناسب حتى الآن ... أخشى أن يمضى بى العمر دون أن أصادفه .. ليس أمامى الآن سوى عرض واحد للزواج .. أحد

المستخدمين بشركتى .. أتعرف من ؟ .. إنه سائق النصف نقل ..
إحترت .. هل بوسعى أن أصنعه زوجاً لى أم أن ذلك سيناله الفشل
.. حقيقة لا أتصورنى بين ذراعيه ولكنى بت مضطرة لقرار ..
مطلوب أن أقرر . كدت أجن من التفكير فى ذلك .. تنتابنى
حالات من الهياج والبكاء .. بالله عليك ماذا أفعل ؟! .

طالعت فى وجهه الحيرة من أمرى .. لكن سرعان ما استقرت
حدقتا عينيه على وجهى فى ثبات الحازم أمره المستقر على رأى
بعينه . وقال ، ألمس حجم معاناتك .. وأقر صعوبة تصور أن
يمضى بك العمر وحيدة تعيشين بمفردك مدى حياتك .. لكن ..
لنقر حقيقة أخرى فى المقابل .. هى أنك تصنفين الحياة صنفين :
حياة بزوج ، وحياة بدون زوج .

بينما الحياة بزوج يصح أن تصنف بصنفين هى الأخرى على
نحو ، حياة بزوج يطاق .. وحياة بزوج لا يطاق ، وتتمنى المرأة
أن تتخلص منه وتعيش بقية حياتها بمفردها ..

لا شك فى أنك ستفضلين العيش بمفردك على حياة فى كنف
زوج غبى جهول يضربك ويؤذيك ويستنزف مواردك .. ليس
معنى ذلك أن يكون زوجك على هذا النحو حتما ، ولكنى أسوق
ذلك لأصرف عنك أسفك على تأخر فرصة زواجك ...

أما عن زواجك من سائقك فلا أراه مناسبًا لأنه يفتقد لأهم
مقومات الزواج الناجح كالتكافؤ واقتناع كل من الطرفين بشخص

الآخر ... فلا هو كفء لكِ ولا أنت مقتنعة به وإلا كنت قد قررت دون الرجوع لرأيى .

ورغم يقينى المسبق من أنه سيعارض فكرة زواجى من سائقى انتابتنى سعادة من تصريحه برفض الفكرة .. فقد كان ذلك يوافق ترتيبى المسبق لمجريات لقائنا هذا .. إننى الآن قد استثرت شفقته .. إمرأة جميلة غنية مثقفة تعانى مشكلة ومتأزمة .

كذا استوضحت من قلقه وحماسته لنجدتى ثم تحديه لتفريطى بالزواج من سائقى ، إننى قد إستأثرت بمساحة عريضة من اهتمامه ، ولأجعل كل ذلك الذى ينتابه يتنامى ويبلغ ذروته أستأذنته أعد مائدة الطعام .. و .. أكلنا .. شربنا الشاى .. طوال الوقت يؤكد رفضه فكرة ارتباطى بسائقى ويلح فى أن أصرف تفكيرى عن ذلك الوازع المجنون ..

قلت : كثيراً ما عجزت عن ذلك ..

قال : أرى أن ثقتك فى نفسك مهتزة .. أنك كفء لأعظم الرجال .. إننى أمامك أتمنى لو لم أكن متزوجاً لأريحك زوجة لى .. عندئذ أيقنت أن الفرصة قد واتتنى لأصرح بمكنون صدرى وعقلى .. فهذا الرجل أريده .. أريده رغم أى شئ ..

قلت : ألا يحق للرجل أن يتزوج من اثنتين وثلاث وأربع ؟! ..

تبسم فى ارتباك وقال : بل يحق له ..

قلت : وما يمنعك وقد أجبتك بحق ؟ ..

قال : بل أتمنى ولكن ..

وقبل أن يكمل كنت قد جعلت رأسى فوق صدره ووضعت أصابعى برفق فوق شفتيه .. فقبلها ! .. بينما مد يده تمسح دموعى .. أحسسته متوتراً ذلك التوتر الذى يسبق انهيار التسليم .. و .. إحتوانا السكون وما بقيت غير أنفاسنا تتلاحق وتجاوب بعضها حتى عادت تتخاذل وتكف عن التلاحق وكأنها دخلت فى نسيج السكون .. وعدنا كلانا نسدد نظراتنا للأرض أمامنا .

إلتقت نظراتنا من جديد ..

قال : مازلت عند رأيى فسانقك لا يناسبك بأى حال ..

قلت : ليس هذا آخر ما توقفناه عنده ..

قال : نعم أتذكر سؤالك عن حق الرجل فى الزواج من أكثر من إمرأة .. فى الواقع أن صحة السؤال هى : هل يستطيع الرجل أن يتزوج من اثنتين ؟ ..

قلت : يستطيع خاصة لو أن الأخرى قدرت ذلك وطوعت له امكاناتها .

قال : اعتدت المسئولية كاملة عن بيتى وهذا يساوى العجز عن مسئولية بيت آخر .. إنه موقف لا يقبل التفريط .. ثم .. لى زوجة لا أحد لها غيرى .. وولد وبنت لا أستطيع البيات دونهما ليلة واحدة .. سأتعذب وتتعذبين معى .. قلت :

ـ لكنك خنتهم جميعاً قبل دقائق .

ـ نعم .. آسف لك ولهم .. ولكنه وضع طبيعى إذا ما وقع رجل تحت تأثير إمرأة وتوفر المناخ المناسب ، والعكس أيضاً صحيح .

ـ أحـبـبـتك بحق واصطنعت الورطـة لأجلك .. لكنى الآن أحتقرك .

ـ وأنا كنت أشفق عليك ومازلت .

ـ (صرخت) دعك من هذا الإفك وأغرب عن وجهى الآن .

وإنصـرف دون أن يلتـفت وراءه .. وعـدت وحـيدة .. رفـعت سماعة التليفون .. أمرتهم بأن يرسلوا سائقى .. تزوجته .. عقدت به مصـالحة مع أهلى .. تعتصرنى الآن موجـات الأسف .. فلا الأهل أهل . ولا الزوج زوج .. ولا الحـيـاة حـيـاة بـغـيـر كـريم الذى ذبحنى بسكين باردة ! .

* * *

■٣■ هذا الذى حدث

؛ يا لسوء حظ الجميلات فى عصرنا هذا ..
فالموضة زواج متواضعات الجمال بل
والدميمات ! .. الشاب المقبل على الزواج عادة
ما ينظر للشابة الجميلة المتعلمة ذات الحسب
والنسب على إنها صورة جميلة تنتظر إطاراً
ثرياً يضمها بين قوائمه المطعمة بالماس
والياقوت ! .. الفتاة الجميلة مهابة من الشاب
البادئ ... بذلك تتزوج متواضعات الجمال
والدميمات من شباب جيلهن بينما الجميلات
يعنسن أو على أحسن الفروض يتزوجن من
الأجيال السابقة على جيلهن ممن توافرت
لديهم القدرات المادية المتفوقة ! .. ويبقى بعد
الزواج للقلوب كلام آخر !! .

* * *

أكان وهما ؟! ذلك الذى حسبته إنبعاث الروح من جديد فى
كيانى الخامل .. أية سعادة تلك التى عايشتها وأنا أحسبنى قد عدت

لسنى مراهقتى الأولى ! أجدل ضفائرى من جديد وأعقصها ثم أعود فأحرر شعرى ليسدل فوق كتفى وأداعب قصتى بزفرات من شفتى مضمومتين ، أطلى أظافرى بلون أحمر فرح .. تعود علاقتى الحميمة بأرديتى وفساتينى .. أصحو الليل وأسهر النهار !! أمسك بالقلم أخط على الصفحات مشاعرى ثم أعود فأمزقها لأنزفها من جديد فوق السطور محمومة متلاحقة تمزع فؤادى فى خروجها تلك المزعات الأليمة الممغصة المحببة ..

استسلم للكاسيت . صوت ميادة الحناوى الذى أحسه يغنى لحالات حب خاصة جداً .. هؤلاء الذين يستردون حياتهم فى حب جديد .. قلوب تنشط بعد طول ركود ومشاعر تخرج من قلب الثلج مشتعلة متأججة .. أتضور شوقاً فألوذ بسريرى .. لا نائمة ولا مستيقظة .. تمعن هيئته فى التجسد وملامحه تبرز وكأنها محفورة فى جفنى !

ذقنه بطبع حسنه .. فمه بشفتيه الطفليتين . أنفه الرومانى .. اتساع عينيه السماويتين .. رأسه بشعره المتماوج .. لكن .. كثيراً ما كنت أعود محبطة بائسة مع رجعة مفاجئة لزوجى أو دقات يد طفلتى الصغيرة على الباب عند عودتها من الحضانة .. أحاول أن أرد لعقلى إتزانه وأنزع من قلبى فتيل النار الذى يعتمل بين ضلوعى : مالك يا «هدى» ؟! ماذا جرى لك ؟ .. أجننت ؟! ..

إلى أيـن هـو ذاهـب بك شيطانـك هذا ؟ .. نسـيت أنك زوجـة وأم ؟ ثم .. إنها محض نظرات متبادلة ! .. ما أدراك أنه الحب ؟ وإن كان فهو أيضاً متزوج .. إنك تلقين بنفسك فى قلب أزمة .. بل تبنين علاقة من نسيج خيالك المحروم .. لا .. لا أقر تهافتك على الرجل ..

ويبـقـى شئ فى داخلى يكابر : أكـاد أجـزم بأن لهـذه النظرات المتبـادلة لغـة نعيـهـا وحـدنـا أنا وهـو .. أن الرجـل يتـملكـه نفس الخـجل الذى تملكنـى .. كـلانا لا شك يتـحين مناسبـة لحـديث .. ضبط موعد خروجه على لحظات توديعى لطفلتى عندما تستقل أتوبيس المدرسة عند مدخل الطريق .. يظل محـرك سيارته دائراً حتى إذا تواريت عن نظره فى مدخل العمارة انطلق إلى عمله .. وفى عـودته لا ترتفع عـيناه للطابق الخـامس سكنه .. بل تظلان زائغتين بين شرفـتى ونافذتى فى الطابق الثـانـى .. أكل هذا ولا تعنى النظرات شيئاً ؟! ..

والكلاكس .. آه . سمـعته .. انطلقت نحو الشرفة .. وجدته .. وجدتنى عيناه . تعلقتا بى . قالتا إنهما اطمأنتا لوجودى .. أختفى فى مـدخل العـمـارة .. ظللت أحسب خطواته .. إقـتـرب الآن من الأسانسير .. ضغط زره .. الآن هبطت الكابينة .. دخل .. ضغط زر الخـامس .. الآن هو فى الثـانى أمـام مـدخل شـقـتنا .. مـازال

الأسانسير فى صعود .. عند الخامس توقف .. خرج من الكابينة .. يعالج مدخل شقته بمفتاحه.

وجدها متكومة فوق كرسى أمام التليفزيون تتابع فيلماً سخيفاً مثلها ! .. ما حركت ساكناً لحضوره .. كئيبة .. أبدل ملابسه .. عاد يستنهضها لتعد له طعاماً . راوغت حتى انتهى الفيلم .. وضعت الأطباق أمامه وإنصرفت لتنام .. جلس وحده .. يعايش حلماً بحياة مختلفة :

كأنه عائد من عمله .. تشبثت عيناه بشرفة الشقة سكنه فى الطابق الخامس .. تطل منها إمرأته التى فى خياله .. وجه كوجهى ناصع البياض وشعر كشعرى أسود كحلكة الليل منسدل فوق كتفيها .. تبادله إشارة لهفانة .. يهرول نحو المصعد .. تكون هى قد فتحت باب الشقة تنتظر حتى يصلها .. ممشوقة القوام مثله .. يطبع قبلة فوق جبينها .. ينقل حقيبة يده ليسراه ويحتويها من خصرها بيمناه .. تصحبه إلى غرفة نومهما .. تعينه على إبدال ملابسه .. حديثها كالهمس يتخال ذلك .. « لا شك أنك أرهقت اليوم فى عملك ، لكنى قد أعدت لك عشاء يزيل عنك أى أثر لتعب ثوان وتكون المائدة جاهزة ، وسهرتنا ممتدة إن لم تكن تؤثر الإنفراد لعمل مستعجل » .. و ..

وانتبه من تخيلاتى على صوت زوجى العائد فجأة كالعادة .. شعره الأشعث مترب وشاربه وحاجباه من تراب الموقع .. يداه

خشنتان متسختان .. بطنه المتكور يتقدمه بل يكاد يحيل هيئته بقوامه القصير نسبياً إلى كيان بيضاوى الشكل .. يزعق بإحتياجاته الحمام .. جائع .. النوم غايتى ومنشودى .. أظل ألهث بين الحمام والمطبخ فالتقاعس عن مطالبه يرتب معركة لا نصل لهدنة فيها إلا بتدخل اطواف من العائلتين .. مللت العراك معه .. اعد الحمام وأجهز العشاء بسرعة .. فنومه كسفره الكثير غايتى ومنشودى أنا أيضاً !

أقسم إننى حاولت كثيراً أن أقنع به زوجاً .. من البدء كرهت إنفرادنا زوجين وأسلوب تعامله مع كيانى الأنثوى .. شئ معذب لا يطاق .. شئ كأن تسيل لعاب جائع برائحة شواء ثم تصدمه بصحن فول مخلوق و .. تتابع ظهور نواقصه .. غيرة متفاقمة ورغماً عنها ضعف عن مواجهة الآخرين .. دائماً يصدرنى للتعاملات .. المناسبات العائلية إجراءات التعاقد على شقتنا الجديدة هذه .. حضانة ابنتنا .. كل من يطرق بابنا !! لكن شيئاً واحداً أعتقد أننى أسهمت فى إصابته به .. العصبية .

فلم يكن عصبياً فترة خطبتنا والاعداد للزواج .. كان هادئ الطبع يغلب عليه التردد والحياء .. لآن صار عنيفاً يصرخ فى وجهى ويدفع بالأشياء من أمامه على طول ذراعه .. أعرف أنه من طبيعة إنفراداتنا زوجين وأسلوبى « الشهرزادى » فى أرجائها !! مع ذلك تنتابنى حالات من الأسف لأجله فأغالب نفسى باللوم كل

اللوم وتترى إتهاماتى لها : أنانية مفتونة بذاتك حتى أنك تستكثرينها عليه .. إستفزازية أنت .. مكابرة .. كان بوسعك أن تحتويه .. ما كان لأحد أن يجبرك على الزواج منه .. بإرادتك كاملة وافقت .. ما ذنب الرجل ؟! .

وما كان ليستثير حنقى شئ مثل مسألة الإرادة الكاملة فى الإختيار هذه !! أية إرادة ؟! حقيقة قلت ، نعم ، ولكن هل سبق وقلت ، لا ، ؟ لم يحدث أن قلت ، لا ، من قبل إذ لم يتقدم غيره للزواج منى بالرغم ما أنا عليه من جمال وما تتمتع به عائلتى من وضع إجتماعى جيد !!.

أعتقد .. أن المرأة قد تحب فرصتها الوحيدة التى تسبق العنوسة إليها أن عوضتها آسف الإنتظار وخوف مضى القطار .. وقد تمقت أيضاً فرصتها الوحيدة هذه إن تمخضت عن شئ أشبه بإفطار من طال صومه على ، بصلة ، ! أقسم إنها حقيقة لا مواربة أو تحيز فيها .. بل إننى بالأصالة عن نفسى كان يكفينى قدر معقول من التعويض فى رجل عن طول انتظارى وقلق وألم إنفضاض بنات جيلى من حولى زوجات وأمهات وجميعهن كن يتوقعن لى السبق !! لقد قالتها لى صديقة من زميلات دفعتى فى الجامعة إمتدت علاقتى بها حتى سافرت مع زوجها قبل أن تواتينى فرصة الزواج .

قالت :- يالسوء حظ الجميلات فى عصرنا هذا .. فالموضة

زواج متواضعات الجمال بل والدميمات.. فالشاب المقبل على الزواج عادة ماينظر للشابة الجميلة المتعلمة ذات الحسب والنسب على إنها صورة جميلة تنتظر إطاراً ثرياً يضمها بين قوائمه المطعمة بالماس والياقوت .. الجمال الصارخ فى منظورهم مرتبط حتماً بقدرات مالية متفوقة ..

من هنا فالفتاة الجميلة مهابة من الشاب البادئ .. لذا ينصرفون للزواج من ناقصات الجمال على أن نقصهن الجمالى الذى لا يعد عيباً أدبياً أو إجتماعياً يتقبل نقص قدراتهم المادية أو تواضعها .. وبذلك تجدين متواضعات الجمال والدميمات يتزوجن من شباب جيلهن بينما الجميلات يعنسن أو على أحسن الفروض يتزوجن من الأجيال السابقة على جيلهن ممن توافرت لديهم القدرات المادية المتفوقة !!

ولشد ما آمنت برأى صديقتى خاصة لما تطابقت حيثياته على مفردات حالتى .. وبقيت إجابتى بالنفى حاضرة على ذات السؤال اللعين المستفز ، هل كانت إرادتى فى الإختيار كاملة مطلقة ؟ وأقوالها : لا .. وألف لا .. المهم ..

فى اليوم التالى سنحت فرصة ذهبية للتعارف .. تلقيت على يد البواب دعوة قال إنه مررها على كافة شقق العمارة .. فحواها إنه قد تحدد مساء الغد موعداً للقاء بشقة الأستاذ ، رءوف كامل ، بالطابق الخامس ، يجمع كل ملاك الشقق بالعمارة للتعارف

والإتفاق على تشكيل مجلس إدارة للعمارة يرعى كافة شئونها وعلاقتها بالجهات الإدارية لمختلفة .

فى الموعد المحدد كنت وزوجى بباب شقة « رءوف » انفتح الباب .. بعضهم اصطحب زوجته وآخرون حضروا وحدهم .. أفسحت زوجته مكاناً لى بجوارها .. هذه هى زوجته ؟! فترة قصيرة وتشاغلت عن حواراتهم أجيل نظرى بين الرسومات الجميلة المثبتة على الحوائط .. بارز توقيعه على معظمها .. فنان إذن ؟! .. رسام .. و .. ما أشبه ذلك الوجه المرسوم بوجهى .. بل إنها أنا ؟!! كيف تسنى له أن يرسمنى ؟ من محض نظرات ؟! وبهذه السرعة ؟! .. لا ربما هى مصادفة ! لا .. بل أكاد أجزم بأنها أنا .. شعرى .. أنفى .. عينى .. فمى .. وجهى كله على أية حال سأعرف .. حتماً سأعرف ! وانتهى اللقاء بتشكيل مجلس إدارة العمارة رءوف رئيساً .. وزوجي - لصفته مهندساً معمارياً - سكرتير !! وجارنا المحاسب أميناً للصندوق .. وانصرفنا .

فى صباح اليوم التالى تبادلنا التحية .. إنطلق أتوبيس المدرسة بابنتى فيممت ناحية السوبر ماركت .. إلتحق بى .. جرى بيننا حديث خاطف لا أذكر كيف بدأ .. أثرت موضوع الصورة .. أقسم أنه يرسم ملامح هذا الوجه منذ سنين كثيرة مضت .. دهشت من أن يرسمنى تحديداً من دون أن يرانى من قبل ! قال : هكذا يتضح

أننى قد عرفتك فى خيالى من قبل أن أعرفك فى الواقع .. إنها لمصادفة فريدة من نوعها .. بل أستطيع أن أقدم لك أكثر من عدد قديم من الجريدة بها رسوم تحمل ملامح ذات الوجه .. أعدك أن أضعها بين يديك فى أقرب فرصة .. و . عدت لضفائرى أجدلها وقصة شعرى .. تسجيل مشاعرى على الورق ثم تمزيقه .. أغنيات ميادة .. الإستلقاء لا نائمة ولا مستيقظة .. مزعات فؤادى الأليمة الممغصة المحببة لسائر كيانى .. أتلهف إطلالة الصباح وإطلالة عودته .

وصلنى صوته عبر التليفون : آلو .. المهندس حسن العشرى موجود ؟ .. لا يا أفندم .. من المتحدث ؟ .. أنا رءوف كامل .. أهلاً أستاذ رءوف ، فى الحقيقة حسن سافر . سيتغيب بين أربعة وخمسة أيام .. لا عليك فقد كنت أود مناقشة بعض الأمور المتعلقة بإدراتنا للعمارة .. عندما يعود سأخبره .. شكراً ، تصبحين على خير ..

لحظة يا أستاذ رءوف ، لوقتنا هذا لم أتلق منك أعداد الجريدة التى وعدت بها ..

- غداً سأخرج قبل الظهر ، سوف أمررها عليك عند نزولى .

- وهو كذلك . سأنتظر ..

- تصبحين على خير ..

- وأنت من أهل الخير يا .. أستاذ رءوف .

لحظات مكثها عند مدخل شقتى متعللاً بضيق الوقت .. قدم لى أعداد الجريدة .. هرولت نحو شرفتى أتابعه حتى انطلق بسيارته .. بقيت عبارته الأخيرة : « سأنتظر رأيك فى التليفون مساء ، لو كان صوتى الذى يحدثك تجاوبى وأن كان صوت زوجتى فضعى السماعة فوراً .. أحسست أن نظراتنا المتبادلة قد صارت ترجمة لمشاعر حقيقة يكنها كل منا للآخر .. صرت أقلب صفحات أعداد الجريدة .. وجدت الرسومات مطابقة بالفعل .. ملامحى .. مفردات وجهى وإطلالة روحى فى عينى .. كأنها صوراً فوتوغرافية ! ..

وراحت الأفكار تتنازعنى .. ربما كانت ملامح لكيان غير موجود فى واقعة وإنما هى خصائص وجه جميل مثالى فى منظوره كفنان .. لطالما إستعان بها فى موضوعات تتناول فتاة أو إمرأة جميلة .. و.. ظللت حتى المساء أناهض نفسى وتناهضنى : أحدثه أو لا أحدثه ؟ بمقدورك الآن أن تمتنعى عن المضى فى هذه العلاقة .. لا . بل لم يعد فى مقدورى الإمتناع .. نعم . لا .. بل أن محادثة المساء المنتظرة ستؤكد إنجرافك بكاملك ! مكابرة .. ليكن ما يكون .

حدثته .. خدر الإعتياد ضميرى فصارت بيننا محادثات يومية

مطولة .. إلتقينا خارج البيت عدة مرات .. صرنا نتعامل وكأننا شركاء حياة .. أغار عليه من زوجته .. عدت لا أطيقها .. أعمل على أن أنتزعه منها أن لم يكن بلقاء فبمحادثة تليفونية مطولة .. تفاقم ضيقى بوجود زوجى .. تمنيت لو يزهدنى فينصرف على أو .. يموت .. وتمنيت أن أموت من ضيقى بوجودى فى لحظات إصطراعى مع ضميرى .. أيقنت إنى انجرفت بكاملى .. ما عادت الكلمات وحدها تكفينا أو تشابك أيدينا .. الحلم بالإحتواء يتنامى بيننا .. بل العمل على تحقيقه يجرى على قدم وساق وكأن دنيانا تلخصت فى كيانين محمومين مشتعلين ..

مرة ألح فى إستضافتى فى خلو شقته من غيره .. صغرت لجنونى .. حولنا رنين التليفون المباغت إلى كتلتين جامدتين باردتين .. انصرفت أرجف إلى شقتى .. طفلتى تبكى لما إستيقظت فوجدت نفسها بمفردها .. ضممتها فى صدرى أبكى .. أبكى جنونى .. ضعفى .. تفريطى .. أعاهد نفسى .. ثم أعود فأضعف ! .. تستمر محاولات الإحتواء .. تفلح مرة وتفشل مرات ..

ماذا بقى من الحب ؟! سألته وكنا فى محاولة إحتواء بمكتبة الخاص.. كنت قد عجزت عن تشبث طفلتى بى .. كان جل همه صرف طفلتى على حتى إستدعى رفضها وإمعانها فى التشبث بى

كراهة متوحشة فى عينيه لها .. كراهة مزعت فؤادى لأجل طفلتى .. أحسست بنفسى حقيرة ضائعة تجاوز تفريطى حدود ذاتى الضعيفة ليمس وجود طفلتى المسكينة .. غلى الدم فى عروقى .. انصرفت عازمة على قطيعة نهائية .

فى بيتى أتحبب لابنتى وزوجى .. يتجاوب زوجى ذلك التجاوب المندهش من التحول الطارئ ! .. أحسست أن بوسعى تجميل واقعى بحد يجعلنى أقبله وأتوافق معه .. قصصت شعرى وأبدلت تسريحتى .. واريت شرائط ميادة . أتلهى .. أقاوم مزعات فؤادى الممغصة .. أصد محاولات رءوف للإتصال بى .. أخرج وطفلتى ..

ألح على زوجى ليخرج بنا ونغيب عن البيت .. فى بيت والدتى طالعت عدد اليوم من الجريدة .. وجدت رسماً يحمل توقيع رءوف .. الوجه وجهى .. مفردات الملامح .. قرأت الحدث الذى يصاحبها .. لشد ما دهشت .. الرسم يعبر عن بطلة الحدث .. أمرأة لعوب دأبت على استغفال زوجها مع صديقه .. تنتظر حكم الإعدام لقيامها وعشيقها بقتل زوجها .. أيقنت أنه فقد إحساساته الأولى بملامح صورته المثالية .. عدت إلى بيتى مهمومة بوجودى فى مكان يجمعنى وإياه حتى لو كنت لم أره .. توسلت إلى زوجى أن ينتقل بنا إلى سكن آخر مهما كلفنا الأمر .. وهذا الذى حدث .

-٤-

الحب وأشياء أخرى

، إنتهى من قراءة رسالة زوجها إليها .. إسترخى فى كرسيه يستوقف الرجفة فى كيانه .. تحرر لسانها : أخبار الجواز إيه يا سى سعيد ؟ .. أجابها : والله مس باين يا عفاف .. الشقة مشكلة . والسفر مشكلة وما فيش فلوس كفاية . سحر زهقت وأنا كمان .. ثلاث سنوات خطبة ؟! .. تبتسم معقبة : لكنك بتحبها ؟ مش كده ؟ . يرد : حاجات كتير النهاردة حلوة وتتحب لكن محتاجة فلوس مش موجودة مع اللى زيى .. ثم آثر أن يختصر الطريق على الفئران التى تجرى فى عروقه وشرايينه . واصل : أنت مثلاً فاكرة كنت عايشة إزاى ؟ برمائية . أنت ومرتضى تتعانقان فى الطرقة أمام باب الشقة وربما أعوزتكما الظروف لركن ضيق من السطوح ...

* * *

مازال يتلو عليها رسالة زوجها .. فى كل مرة تضطره لفك طلاسم هذا الخط .. فهى أمية لا تقرأ بينما يستعين زوجها ـ الأمى أيضاً ـ بأحد العمال زملائه ممن يفكون الخط ليكتب على لسانه .. الهجاء من النطق وبلهجة المتحدث مباشرة : « يا عفاف روحى لأمى وشقرى عليها من وقت للتانى وبحبحى عليها شوية هى وعزيزة أختى .. والميتين دولار إللى مع الجواب تغيريهم حيعملوا يجى خمسمية مصرى تصرفى جزء وتوفرى الباقى بس إمسكى أيدك شوية فى المصروف .. وقولى للأستاذ سعيد إن أنا باشتغل زى ما هو عارف فى المعمار وطول النهار مرميين فى صحرا وده إللى مخليلى مش عارف أدبر له عقد عمل لكن أنا برضه مش حاسكت و .. و .. و.. و ..

كانت أول رسالة تصلها ـ بيد زميل لزوجها ـ على البيت الجديد .. لم يكن يتوقع أن تواصل الإعتماد عليه فى قراءاة رسائل زوجها وتغيير الدولارات التى يبعث بها .. بذل جهداً من نفسه ليبدو مقبلاً على معونتها حتى إنصرفت بوعد منه أن يزورها فور تمكنه من إبدال الدولارات حتى يحرر لها الرسالة المعتادة لزوجها .. عاد يتمدد فى فراشه وصوت أمه يأتيه من الصالة : يا سعيد . سعيد حاتشرب الشاى معانا ؟

ويجيبها بصوت مرتفع : لا يا أمى .. يغمض عينيه ويفتحهما وهو ساكن فى فراشه كأنه يستدعى شيئاً من ذاكرته حتى إذا إلتقف

أول الخيط أغمض عينيه مرة واحدة وإستسلم للتداعيات : قبل أربع سنوات حضر زفافهما الفقير .. عفاف ومرتضى .. الشقة قبالة االشقة فى البيت القديم المتهالك .. دائماً كان باب شقتهم مفتوحاً .. يفترشون الصالة .. أم مرتضى شبه الضريرة وابنتها المطلقة ، كوثر ، وأولادها ، وعفاف التى ظلوا لفترة يدعونها العروس .. وفى المساء كان ينضم إليهن مرتضى .. إما يتمدد على الأرض ورأسه فى حجر زوجته أو يعتمد بظهره على الحائط الكالح يطلق النكت ويناوش عفاف والجميع يضحكون ..

لم يكن يعرف أية صلة كانت بين مرتضى وعفاف قبل زواجهما غير أن ما بدا من سلوكهما لم يدع مجالاً لإحتمال غير أن قصة حب جمعت بينهما توجت بزواج يستمد روح الحياة فى ظل هذا الفقر المدقع من بساطة لا متناهية وفكه غير مبال .. مرة رمقهما يتعانقان قبل أن يطرقا باب الشقة على أم مرتضى .. عاد أدراجه دون أن يشعرا به .. كان من الممكن أن يتفهم ذلك ... حرية أوسع فى الطرقة خارج الشقة وفرصة إنفراد اهتبلاها ..

ومرة .. كانت ليلة صيفية حارة .. إلتجأ لسطح البيت لما كان مفلساً وأثر الإعتكاف بالبيت .. بيتهم يعلو كل البيوت حوله .. تجاوز كتف الحائط الذى يصد نسمات الهواء الرطب .. وقف متكئاً على السور يلفه الظلام والسكون .. وبعد قليل تناهت لمسامعه

همسات وهمهمات لإثنين .. هما اثنان .. إحدهما يحدث همهمة والآخر بين الحين والحين يقول « هس » ..

ظل ساكناً بموقعه المحتمى بكتف الحائط .. يراقب من بعيد ـ شبحان يتسللان .. شبح رجل وآخر إمرأة .. ألقيا ببساط فوق الأرض فى حضن السور البعيد . ما عاد يرى منهما شيئاً غير أن شعر رأسه الأسود الناعم انتصب وراح يبلع الغصة وراء الغصة وكأن حلقه قد ضاق من إنتفاخ جسده بجريان الدماء فيه وكأنها فئران غليظة تتسابق فى عروقه وشرايينه ! .. وحتى لما سكتت همسات الشبحين التى ظلت لفترة تتلاحق فى تصاعد محموم بقى هو على حاله لما إضطر أن يجعل وقتاً بين إنصراف مرتضى وعفاف من السطح وإنصرافه !! ..

وطالت ليلته .. رؤية علقت بمخيلته .. كم ضحك منها سخرية .. لو أن سحر خطيبته الموظفة المتعلمة وضعت فى مخنق مثل الذى وضعت فيه عفاف وقد عجزا حتى الآن عن تدبير سكن ليتمما زواجهما !! . كلما تخيل ذلك أغرق فى الضحك من تخيلاته !! . ثم يتململ يأساً ولسان حاله يحدث : على أية حال وجدت عفاف ومرتضى متنفساً لعواطفهما .. بل .. ربما كانت مثل عفاف هى الزوجة المثلى فى ظل المخانق المادية ؟!

زوجة لكل الظروف .. تماماً مثل العربات البرمائية فى الحروب ! ولما سافر مرتضى إلى البلد الخليجى إئتمنته قارئاً على

أسرار خطابات زوجها ومبدلاً للدولارات التى يوفد بها نفراً من زملائه فى الغربة من وقت لاخر .. كان يتحرج منها لسبب يعرفه .. وربما شعر فى نفسه قدراً من التقزز كلما إقتربت منه .. وكثيراً ما كان يضيق برأسها الجامد العاجز عن فهم !

وفى أول مرة تكلفه بإبدال دولارات سألها : بالسعر الرسمى واللاسوق سوداء ؟ .. فى بلاهة سألته عن معنى ذلك فأجابها : السعر الرسمى أقل من سعر السوق السوداء لكن الأول هو الحلال الذى يحرمك نسبة تفيد بلدنا والآخر حرام يزيدك ويحرم بلدنا .. أمام هذا التفسير تخلصت من كل بلاهتها وترددها وردتها نابهة قاطعة : خلينا فى السوق السوداء إن كانت من غير خطر .. بلد إيه ياخويا .. هى كانت البلد حسبانا ناس .. عايزين شقة نلاقى فيها راحتنا ياسى سعيد !!

وقتها وقر فى نفسه معنى .. غبية عند كل شئ . واعية عند الغريزة والمادة ! .. وراح يلحظ فى كل مرة تطوراً يطرأ على مظهرها حتى بدت فى عينيه وكأنها ثمرة بيضاء ناعمة خرجت من قشرة صدئة خشنة ! ..

إبدل الدولارات وفى زيارته الأولى لعفاف بشقتها المستقلة جلس يحرر رسالة بردها على خطاب زوجها .. الشقة واسعة فى بيت جديد .. من وقت لآخر تنصرف لتعالج مشكلة لطفلها فى حجرة مجاورة وتعود باسمة معلقة على سلوك طفلها : « يرفض الأبواب

المقفلة ومصممة أنا أعوده .. كأنه راها لأول مرة .. تذكر أنه لم ير طفلها أبداً .. لم يكن يهمه ذلك فى شئ .. وهذه المرة شغلته معاينة الشقة حتى عن أن يراها هى قبل أن تجول عيناه فى كل ركن منها .. إذ بدت جديدة كشقتها !

تقول أن خصومة وقعت بينها وبين أم مرتضى .. لن تذهب إلى هناك مرة أخرى .. تسأل عن وسيلة للإتصال به عندما تحتاج معونته من غير أن تذهب إلى بيتهم .. دون رقم تليفون المصلحة التى يعمل بها فى ورقة تركها لها .. وإنصرف .. كان على موعد مع سحر خطيبته .. لم تتملكه ذات اللهفة على لقائها ! .. فما العائد من اللقاءات ؟! .. سؤال إمتطى خطواته المتخاذلة فى طريقه إليها ..

إلتقاها .. تشابكت يداهما .. على كورنيش النيل .. مازالت تتناول جوانب عديدة للمشكلة وثلاث سنوات عمر الخطبة .. و .. منصرف هو عن ذلك بإحتواء كفها الرقيق فى كفه وإشباعه ضغطاً من فوران عاطفته ! .. ما سمعت منه شيئاً .. صمتت .. لم يعقب .. تنبهت لوطأة ضغطات كفه على كفها .. أحسست بأصابعها تؤلمها وظهر يدها قد إلتهب .. إنتزعت يدها من كفه .. توقفا .. فى مواجهة .. تطالع وجهه فى دهشة ! .. تفوقت دهشتها مع عبارته :

صرت فى رصانة وتأنق الهليوكبتر ... مفتون بالبرمائيات! ..

حسبته يهزى .. إستبد بها الضيق من إنشغاله عن قضيتهما الأساسية .. مازال يبتسم كشخص أبله وهو يحاول إستعادة يدها إلى حضن كفه ! .. إيه ؟! . لم تعد طبيعياً !.. صرخت فى وجهه .. وما زال لا يهدف غير يدها حتى تركته وهرولت منصرفة !..

إستدعته عفاف .. خطاب جديد من زوجها راغبة فى تحرير رد عليه . إنتابته لهفة على إتمام هذا اللقاء .. عاوده الشعور بانتفاخ جسده من جريان الدماء فيه وكأنها فئران غليظة تتسابق فى عروقه وشرايينه !! .. مر عليها فى طريق عودته .. كانت جديدة كشفتها .. كأنه ما رآها قبل الآن !! .. لسان حاله يحدث : تلك هى برمائية الحروب ؟! .. ما كل هذا الإشراق .. النعومة .. طلاقة اللسان ؟!

قرأ عليها الرسالة .. راحت تملى ما ترغب فى تسطيره .. هذه المرة كل العبارات مادية بإحتياجات .. لا شئ يخاطب وجدان الرجل! .. طوى الرسالة وإنتهت مهمته .. النوافذ مغلقة لكنه برد الشتاء إتحد مع صقيع فى وجدانه فظل كيانه يرجف .. حضرت بالشاى الساخن .. وجده مغرياً .. لم يتعلل بموعد أو ضيق وقت .. استرخى فى كرسيه يستوقف الرجفة فى كيانه .. تحرر لسانها :

أخبار الجواز إيه ياسى سعيد ؟ .. وتحير فى إختيار إجابة .. لكنه وجدها : والله مش باين ياعفاف .. الشقة مشكلة والسفر مشكلة وما فيش فلوس كفاية .. سحر زهقت وأنا كمان .. ثلاث سنوات

خطبة ؟ .. و .. تبتسم عفاف معقبة : لكنك بتحبها ؟ مش كدة ؟ .. وكانت ثمة إجابة حاضرة :

تعرفى ؟! .. حاجات كتير النهاردة حلوة وتتحب لكن محتاجة فلوس مش موجودة مع إللى زيى ! .. ثم أثر أن يختصر الطريق على الفئران التى تجرى فى عروقه وشرايينه .. واصل :

أنت مثلاً فاكرة كنت عايشة إزاى ؟ برمائية .. يضحك وهو يتجاوز الكلمة .. أنت ومرتضى تتعانقان فى الطرقة أمام باب الشقة .. وربما أعوزتكما الظروف لركن ضيق من السطوح ! .. وتبتسم عفاف دهشة وكأنها تسأل نفسها من أين له مثل هذه الحقائق ؟ ..

بينما كان يعمد فى تخابث لاستنفار ركن الغريزة فى ذاكرتها .. وبدت بشائر فلاح مسعاه لما راحت ترسل ضحكاتها من عباراته عالية وتضرب بيدها فوق يده على المنضدة كما لو كانت تطالبه بالكف عن مشاغبات كلامية هى راغبة فيها !! .. حتى إطمأن لنفاذ سهمه فالتقف كفها اللدن الضارب فوق كفه ليحتضنه بين كفيه ويقبله وإذا بأصابع يدها الأخرى تمررها بحنو فى شعر رأسه الأسود الناعم .. و .. فى اللحظة انتبه على صوتها تدعو طفلها - الذى حضرهما فجأة - ليسلم على الأستاذ سعيد ! ...

فى منزل خطيبته تلبية لدعوة عاجلة من والدها .. جميعهم إلتفوا حوله .. القضية الآن هى البحث عن مخرج من هذه الأزمة

.. إما الشقة أو الإنفصال ! .. ما بقى شئ أمامه غير أن يلاقى وجه سحر .. كاد يلاقيه لكنها أشاحت بوجهها فى الجهة الأخرى .. نطقها : « سحر حرة من خطوتى الآن » .. نهض .. فى مكانه استوقفته سحر محتدة : ثم قل لى إيه حكاية هليوكبتر وبرمائية ؟! .. ابتسم وعيناه مازالتا تستغربان تحديها المباغت وقال : هذيان .. كنت أهذى .. أننى جننت .. وإنصرف .

توجه من فوره إلى بيت عفاف .. لم تكن هذه المرة إستدعته .. عالج ذلك عند نفسه : ما العجب فى أن تلجئنى إليها ظروفى كما تلجئها إلى ظروفها ؟! إحتاجتنى مائة مرة وأحتاجها أنا مرة واحدة ؟! .. ضغط جرس الباب .. فتح صغيرها .. دخل .. من الحمام بلغه صوتها تدعو صغيرها : مين يا طارق ؟ .. ويجيبها الصغير : عمو سعيد يا ماما .. وعاد الطفل إلى ألعابه .. يجرى بين الحجرات وراء قطة صغيرة .. يقفز .. يتشقلب .. يحجل على ساق واحدة .. ويغيب هناك وراء القطة ..

تأتى عفاف .. مشرقة .. بيضاء ناصعة .. متوجة بمنشفة قرمزية فوق رأسها .. يطفو فى رأسه ذلك المعنى الذى كان وقر فى نفسه .. عند الغريزة والمادة واعية نابهة .. كأنها قرأته .. نهض يستقبلها .. إلتقف يدها البضة .. ضمها وقبلها .. ثم فتح ذراعيه كجناحين متعطشين للطيران .. إستوقفته مغتبطة :

إنتظرنى ، لحظات وأعود .. إمشط شعرى بسرعة وأحدث طارق ! .. و .. بعد دقيقة خرج طارق إليه يعدو .. أدرك أنه فر من محاولتها . يقفز .. يتشقلب .. يحجل على ساق واحدة .. يحدثه : السنة الجاية سنة أولى .. تقول أمى أنك الذى ستلحقنى بالمدرسة .. حقيقى يا عمو سعيد ؟ .. ويجيبه :

- نعم .. حقيقى يا طارق .

- أنت بتحبنى يا عمو سعيد ؟!

- نعم .. أحبك يا حبيبى .. وينهض مترجلاً نحو المدخل بينما طارق يدعوه : على فين يا عمو .. أنت ما شى ليه ؟ .. وعندما عالج باب الشقة خارجاً سمع صوت عفاف من الدخل :

- إيه يا طارق ؟

- عمو سعيد مشى يا ماما .

- إزاى ؟ .. إزاى ؟ يا سعيد ! .. سعيد ! .

.. لكنه لم يتلفت وراءه.

***

٥

أنا ابنة أمى

كانت جميلة تعامل جسدها وكأنه حرفتها .. شعرها .. وجهها . كفيها . قدميها . كالمفتونة بذاتها .. لو إستطاعت لخرجت من جسدها ووقفت قبالته تمعن فى تزيينه وتجميله .. إذا حلت بمكان فهى شمس أرضية توسطته ورجاله فراش محموم بسخونتها .. فى محال بيع الملابس والأحذية . نظراتها الواعدة تسخر تهافتهم وتستخدمه فتحظى بأعلى قدر من الخصم .. وربما حملنى صاحب المحل هدية - وأنا فتاة صغيرة فى رفقتها - فى إطار التقرب إلى الكيان الذى أشعل الغريزة فيه .. وتخرج أمى سعيدة بما أحرزته من فوز .. مشترياتها .. غلبة قدراتها على حنكة البائع .. تضغط على يدى وتبتسم فى وجهى وكأنها تحفزنى على أن أسعد بنباهة أمى وشطارتها .. وفى الحقيقة كنت أسعد كل السعادة بأنى أرى أمى تقابل بكل هذه الحفاوة !! .

من أمي الله يرحمها .. تعلمت ورسخ في اعتقادي أن الرجل صنعة المرأة .. لعبتها .. مهما تبدت فيه فورة الرجولة وبرزت قوة الشخصية .. هو في النهاية كيان طفولي لا يستعصي على إمرأة نابهة .. والمرأة النابهة تلك هي التي تجمع مع ذاتها أكبر قدر من وسائل ترويض الرجل وعرفت أن لكل وقت وموقف وسيلة نافذة لا يخيب معها رجاء .. من هنا كان لزاماً على المرأة أن تظل إمرأة طوال الوقت .. إمرأة تتقن صنعتها وتجدد من أدواتها !! .. ولأمي عبارة لا أنساها : « الرجل من المرأة وإليها » .. وتفسيرها لمقولتها هو أن حياة الرجل تبدأ من أمه وعلى صدرها وتستمر وتنتهي على صدر إمرأة يختارها ! ..

كانت جميلة تعامل جسدها وكأنه حرفتها .. شعرها . . وجهها .. كفيها .. قدميها .. كالمفتونة بذاتها لو استطاعت لخرجت من جسدها ووقفت قبالته تمعن في تزيينه وتجميله ! .. إذا حلت بمكان فهي شمس أرضية توسطته ورجاله فراش محموم بسخونتها .. عند الكوافير .. في محال بيع الملابس والأحذية .. نظراتها الواعدة تسخر تهافتهم وتستخدمهم فتحظى بأعلى قدر من الخصم . وربما حملني صاحب المحل هدية - وأنا فتاة صغيرة في رفقتها - في إطار التقرب إلى الكيان الذي أشعل الغريزة فيه ..

وتخرج أمي سعيدة بما أحرزته من فوز .. مشترياتها .. غلبة

قدراتها على حنكة البائع .. كارت باسمه وتليفوناته ووعد بلقاء تؤكد لى أنها لن تلبيه ! .. تضغط على يدى وتبتسم فى وجهى وكأنها تحفزنى على ن أسعد بنباهة أمى وشطارتها .. وفى الحقيقة كنت أسعد كل السعادة بأنى أرى أمى تقابل بكل هذه الحفاوة !!..

أحسست أننى قد شببت بسرعة أنا وشقيقتى الأكبر منى ، هيام ، فى بيتنا الجديد الواقع فى أطراف الحى الراقى .. ربما كان مبعث ذلك الإحساس هى تلك الحريات الأوفر التى خولتنا أمنا ومعاملتها إيانا كصديقتين حميمتين . وكأنها واحدة من بنات جيلنا .. لقد وفرت لدينا منذ إنتقالنا لشقتنا الجديدة إنطباعاً بأننا جميعاً خلصنا من قبضة ورقابة أهلية أبى المجاورين لنا فى سكن روض الفرج ..

من هنا تعاملنا مع الحرية وكأنها وسيلة للكيد فى عهد روض الفرج .. إنطلاقة بلا حدود فى أوساط فتيان حينا الجديد .. ميل لإستعراض مواطن الفتنة فينا كانت تزكيه أمنا .. سيقاننا البيضاء الممتلئة .. بشرتينا الوردتين .. أستطيع أن أقول أننى عشقت جسدى أكثر مما عشقت أى شاب تغزل فيه وزحف نحوه .. أيقنت كم يميزنى هذا الجسد عن الأخريات من حولى .. إنه نفس التهافت الذى رأيته يحيط بأمى من مجتمع الرجال وكنت أسعد به أيما سعادة .. ها هم من حولى يغرقون فى إرضائى ..

كانت بصمة أمى دامغة على سلوكى وشقيقتى هيام .. فإنطلاقاتنا خارج البيت كانت أشبه بخروج صيادين ماهرين للعودة بأندر الفصائل وأعلاها قيمة من حيوانات الغابة ! .. علاقات متعاقبة .. بل كثيراً ما تزامنت أكثر من علاقة فى الفترة الواحدة .. بعضهم رحبت أمى باستضافتهم فى بيتنا .. ومنهم من استضفناه فى غيابها ! .. ربما من قبيل التمرد على تسامح أمنا فى استضافتنا لهم الذى يفقد المغامرة ميزة المخاطرة ومتعة المخالفة ! ..

كان يؤكد هذا التصور عندى محاولات أمى الذكية لإستدراجى أو شقيقتى لإعتراف بصحة اعتقادها فى أن غريباً لا تعرفه دخل البيت فى غيابها : منذ متى تعرفينه .. ولماذا هو بالذات تخفين حقيقته عنى ؟ .. لابد أنه إنسان غير لائق وإلا كنت عرضت علىّ فكرة استضافته .. أعتقد أن سهم الحب أصابك .. « مراية الحب عامية » .. لو كان يضارعنا ما كنت أخفيتيه .. ستضطرين يوماً لمصارحتى . لكنى سأغضب كثيراً . كما ستفقدين الكثير من عطفى وحنانى عليك إذا تكررت استضافته من وراء ظهرى .. ذلك لمجرد أن تكتشف « عقب » سيجارة فى المنفضة أو أى مظاهر أخرى .. ثم تعود لتلين بعد وقت قصير :

ابنتى .. أنا أخشى عليكما .. ليس كل الرجال من ماء واحد ..

بعضهم يتسلل إلى كيان المرأة فيتسيده .. فلا تجد منه مناصاً ..
يفقدها سيطرتها ويستعبد عوطفها .. تبقى هى المتهافتة المجنونة
وكأنها ما خلقت إمرأة ولا كانت أميرة جميلة خفقت لها قلوب
وقلوب !! .. مازلتما صغيرتين .. أدرك ما لا تدركانه .. أنشد لكما
زيجتين عظيمتين .. لنظل على صداقتنا أفضل .. ونبذة من
تجربتها سمعتها منها مرات ومرات : تسيد زوجى الأول كيانى ..
وسيم .. أنيق .. ميزنى على بنات جيرتى .. أخذنى من القرية
إلى المدينة .. حولنى من فلاحة بجلباب إلى برنسيسة أنيقة ..
علمنى أشياء كثيرة .. جعلنى أحبه فوق طاقتى .. أحببته بجنون
فأخذ يضربنى بجنون ويذكرنى كلما ضاق بى بأننى فلاحة وأنه
هو الذى صنعنى إمرأة .. استأصلته من كيانى بالكاد .. وتعلمت ما
لم تتعلمه إمرأة !! ..

عبارتها تلك كانت تثير شفقتى على أبى بعد أن بلغت مرحلة
سنية وخضت من التجارب ما يجعلنى أستطيع أن أدرك إلى أى
حد هو ضعيف مسكين كيان مثل كيان أبى أمام مهارات أمى
وأسلحتها الأنثوية وقد رأيتها فى التأثير وتوجيه الكيانات الرجولية .
.فقد ظل مرتبطاً بالعمل فى ورشة أخيه بروض الفرج حتى بعد
إنتقالنا لشقتنا الجديدة .. يعود فى المساء منهكاً بعد نهار من العمل
المتواصل نصفه بالمصلحة ونصفه الآخر لدى شقيقه .

ولم يكن ذلك يضايق أمى فى شئ .. بل ربما كانت تسعد به سبباً يصرفه عنها وعنا .. وأظن أننى وشقيقتى كنا نلتقى معها فى ذلك .. فنصف يوم الأحد من كل أسبوع كنا - ثلاثتنا - نفرض على أنفسنا قدراً من الإلتزام والتصنع إرضاء لوجوده بيننا !! .. ولم تكن شقيقتى لتعمر أكثر من لحظات ، إذ يحد دائماً إرتباطى الشديد بأمى وتعاطفى معها - الذى لم تعد لى فيه حيلة - من توترها إلى حد يجعلنى أميل لناحية أبى . فمجرد تصوره مجنياً عليه أو مظلوماً يفرض وجود أمى ظالمة وهو والأمر الذى لا يوافق نفسى المتآخية مع أمى !! .

واصلت « هيام » تعليمها بينما تعثرت أنا وبقيت فى البيت .. ومع بداية إلتحاقها بالجامعة عادت إلينا بشاب وسيم يستخدم سيارة أنيقة لتقدمه لأمى وتهمس فى أذنى بأنه نبضة قلبها .. زيارة وأخرى واستحضر شقيقه الأصغر ، فوجدته يناسبنى .. وتنامت العلاقة بيننا فى ظل تهافت أمنا لتجعل منتهاها زواجاً ثنائياً قريباً ..

« حسام » و « وليد » ابنا صاحب المصنع والعمارة اللذين يحجبان بيوتنا المتواضعة عن الشارع العمومى والميدان .. ذلك غير ممتلكاته الكثيرة المتناثرة فى أرجاء الحى .. وظلت أمى

تحفزهما على أن يعلنا والدهما برغبتهما وضرورة أن يكون ترددهما علينا فى إطار يوافق تقاليد عائلتنا المحافظة !! ..

لم يكتف الرجل بالرفض .. ترصد زيارة أبنيه لبيتنا .. دق الباب .. سرعان ما توسط المكان يسأل عن رجل البيت ، فخرجت أمى من حجرة نومها تتلقى أقذع السباب : أين رجلك يا إمرأة .. أحسبت أن أحداً هنا يجهل سلوكك وابنتيك ؟ قسماً عظماً كفيل أنا أن أجعلك تغادرى حينا النظيف حفاظاً على ماء وجهك .. ضمى ابنتيك يا إمرأة واعلمى أننا هنا نعرف كل صغيرة وكبيرة عنكن .. وساق ولديه أمامه وهو يلتفت نحوى وشقيقتى مهدداً : إنذار ما بعده إنذار ..

وكانت المفاجأة أن يدق بابنا عريس ونحن مازلنا فى تلك الحالة من عدم الإتزان .. إبراهيم ابن خالتى .. يكبرنى بسبعة عشر عاماً .. ما كنا نتزاور وبيت خالتى إذ كانت لأمى مواقف خلافية كثيرة مع زوجها الذى كانت تستحب أن تصفه بـ « الفلاح المتخلف » ..

ولكن بدا لى أن إنبهار إبراهيم بفكرة الزواج منى تفوق على بعض الآراء الرافضة للفكرة .. عائد هو بمدخراته من حرب اليمن وكان جندياً هناك .. تعثر هو أيضاً فى تعليمه وأمضى فترة ما قبل تجنيده عاملاً بمحل مينى فاتورة ولكن الجيش عينه بعد إنقضاء خدمته مساعد أمين مخزن بإحدى مؤسسات القطاع العام .. فى

الحقيقة لم يكن يروقنى على الإطلاق .. يتمتع بثقل روح وجهامة يفوقا التصور .. يفتقد إلى ملاحة الوجه وطلاقة اللسان فلا يضارع فيهما الرجل الأحط فى تصنيفى لمن دخل حياتى من الرجال .. رفضته بينما وافقت أمى! .. وقفت قبالتها أحاكم قبولها .. أجابت : إنها فرصة يا إبنتى قد لا تعاودك قبل سنين ..

أننا لن نستطيع أن نغير مسكننا مرة أخرى .. إنك تدركين ما أقصده .. أرجوك لا تضيعى فرصتك . وكنت بالفعل أدرك ما قصدته أمى .. فمن سيطرق بابنا بعد ما صار ؟ وافقت وتوالت الأحزان فى كيانى ..

توفى أبى وتهالكت أمى منذ هزيمة كيانها أمام الرجل والد « حسام » و « وليد » .. أعرف إلى أى حد هو صعب ما تعرض له كيان أمى المدلل المترف فى عالم الرجال .. منذ لحظتها وهى تتهاوى ويترك مرور اليوم الواحد أثره فى وجهها وجسدها الذى طالما تحدت به فوات سنين عمرها ! تملكنى وقتها مزيج من المشاعر المتناقضة ..

أحب أمى وتتعلق بها روحى .. وأتمنى لو تموت ويموت معها كل ما علق بذاكرتى من مشاهد لشطحاتها الأنثوية وما تسلل منها إلى كيانى فتاة ثم إمرأة وأدمنته حباً مفرطاً فى ذاتى أسيرة جسدى

الذى آمنت بأنه ميزتها الوحيدة المتفوقة على كل ما تتمتع به الآخريات من ملكات !!..

أكون قد أحببتها لقوتها وكرهتها لما رأيت بعينى رأسى تلك القوة كالوهم تتلاشى مؤكدة أنها أضعف ما كان فى كياناتنا ؟! .. أم هو استسلامها الذى أنفذ لإرادتى قناعة الإرتباط بكيان لا يطاق .. بإبراهيم أسير ذاته الخاملة وبيت أبيه الذى ضمنا زوجين متنافرين ؟! .. أحياناً أشعر بأنها إرادة قدرى فى أن أتوقف عن نهج أمى .. ولما أحسب ما آلت إليه حياتى وإنطلاقاتى يشب فى رأسى الإعتقاد فى أن إبراهيم وحجرته الضيقة فى بيت أبيه ليست هى بأى حال نهاية المطاف إن لم تكن منطلقاً لتمردى بحثاً عن عالم أوسع ! .

وماتت أمى ولم يمت معها شئ من ذلك .. بل أحيا موتها فى نفسى تمرداً عشوائياً لا يأبه بنتائج .. وجدت نفس الإصداء لدى « هيام » شقيقتى التى سبقتنى إلى التفاعل معها ..

فبشقة أمى التى آلت لهيام باركت بنفسى علاقتها بـ « سمير » لما وضعت رأسها فوق صدرى تسمع قلبى المكدود تبريراتها : إننا مظلومات ما نصفتنا أقدارنا .. انظرى .. جاوزت الثلاثين ولم يتقدم أحد .. ثم ما قيمة أن أرتبط برجل لن أتوافق معه ؟ .. ها

أنت قد تزوجت .. مسكينة أتعذب من أجلك .. إنلى أحب سمير ويعشق هو مجرد طيفى .. أنسب من كنت أتمناه زوجاً لكن أخرى سبقتنى إليه .. أقسم أنه لم يحبها يوماً .. أصدقه .. أنت زوجة ولا تحبين زوجك .. وكان من الممكن أن أتزوج رجلاً لا أحبه كيف أضيع حياتى وأبخس نفسى حقها من أجل مواثيق كفرت بها ؟!

إننا تعاهدنا وهذا عندى يكفى .. فوق ذلك كله هو ثرى لا ينقصنى شيئاً .. هداياه غالية كحبه وسيارته كمركبة ملائكية تنقلنى معه إلى رياض وحده يعرف السبيل إليها .. و .. و .. أما مسألة اختلاف الديانات فلا علاقة لها بالحب ولا تمنع من أن يكون « سمير » حبى وأهلى ودنياى وأكون محظيته ومحسوبة عليه !!

يومها باركت هذه العلاقة وانتظرت حضوره .. قبلت دعوتهما لنزهة بسيارته أوصيته خلالها بهيام خيراً .. وعدت لبيتى كالعائدة لمعتقل .. فهناك إبراهيم ببلاهته وخاطره المتعثر ينتظر - لاشك - بمحاولات سقيمة يؤكد بها أنه مكتمل الرجولة تستطيع إمرأة مثلى أن تنعم فى أحضانه ..

وهناك أبوه وأمه يصبان فى أذنه من خبراتهما ويحفزانه .. وشقيقه الأكبر الذى أدرك بالطبع قصور أخيه فراح ينصب لى الفخاخ ويتعهدنى بنظرات استحسان شهوانية هى رسائله المتضمنة

إستعداده لتعويض قصور شقيقه إبراهيم !... وشقيقته عزة المتعلمة الجادة المتعالية على الجميع ..

نعم .. هناك مناخ لا أطيقه .. لكنى عائدة إليه هذه المرة بحلم وردى .. كحلم سجين بقوة قدرية تطلقه من محبسه .. حلم صرف على كآبة كل عودة إلى بيت زوجى ليأسرنى تصور ظروف مماثلة لظروف هيام .. سمير آخر أحلق معه فى عالم مختلف أبصق من فوق سحاباته على مجتمع إبراهيم وشقيقه الرذل وأمه وأبيه وشقيقته .. محض أشياء تبتر الحلم .. مزايا هيام الأوفر .. لا تربطها برجل آخر أيه مواثيق .. منفردة بالشقة تستطيع أن تستضيف سميرها فى أى وقت ..

وأنا أقطن غرفة من داخل شقة حماى .. لها مكانة أدبية - من مؤهلها ووظيفتها - أهلتها لعلاقة مع رجل فى مثل مستوى سمير الحضارى .. أما أنا فحتى عند الزواج اختارنى ابن خالتى لأننى غير المؤهلة التى يستطعها .. مررت بتجربتى حمل وولادة ترهل معها جسدى بينما بقيت هى على قوامها المثالى .. و .. و .. ترى كيف يكون « سميرى » مع كل هذه الفوارق ؟ ..

وبدأت رحلة بحثى عن سميرى أو صاحبى .. الأمر الذى استلزم أن أستلهم مهارات أمى إلى جانب مهاراتى السابقة .. مهارات قناص فى رحلة صيد دائمة .. إلى أن إلتقيت مصادفة

بـ « ألفت » الشقيقة الكبرى لإحدى صديقاتي الحميمات فترة الدراسة الإعدادية .. تقيم ألفت بشارع قريب من سكني .. أعدنا الود القديم ..

عرفت إلى « حسني » زوجها .. في عمر زوجي تقريباً .. ملتهب المشاعر والأحاسيس كما الأسلاك الرفيعة المحمرة اشتعالاً داخل نطاق المصباح الزجاجي الذي طالما شبهت نفسي به وأنا أعايش إبراهيم في حجرته الضيقة .. يعاني تسلط زوجته وإستبدادها كصرصور يدوسه حذاء ثقيل قديم .. تآخينا تحت نظر زوجته وزوجي .. ثم .. تبادلنا الإعجاب بذاتينا في مناسبة ..

ثم .. تنامى الإعجاب ليصير حباً تهرب به وبنا سيارته إلى حيث تفتقد الأماكن للناس .. ثم .. عشقاً يستتر بباب شقة هيام شقيقتي بعد أن باركت العلاقة بيني وبين حسني - كما سبق وأن باركت أنا علاقتها بسمير - وأوصته بي خيراً . ومنحتني نسخة من مفتاح الشقة لتتكافأ فرصنا !!

كانت عزة شقيقة إبراهيم زوجي تلقى من جميع أفراد أسرتها معاملة متميزة أكسبتها مكانة متفوقة في أوساط العائلة والجيران .. ظللت أتحسب لأن يقع بيني وبينها صدام وهي على مكانتها وتميزها .. فقد كنا منذ وطأت قدماي بيتهم متضادتين وزامنا

دائماً مصطنع إرضاء لمن حولنا .. حقيقة هى إبنة جيلى لكن التفاهم لا يحضرنا .

ولما توفيت حماتى استطعت توجيه إبراهيم نحو إعادة توزيع غرف الشقة فجمعت حجرة واحدة بين حماى الذى أقعده المرض وابنته عزة بينما شغلنا بقية الحجرات بأثاثنا وولدى وابنتى .. وسقط التحسب لصداماتى مع عزة بعد وفاة أمها التى كانت هى فى الحقيقة العقل الذى يدير البيت ومصدر التأثير على شخوصه .. ولكنى أثرت أن أوجه ضرباتى الثقيلة لعزة من خلال إبراهيم وشقيقه الأكبر الذى يزورنا بين الحين والآخر وحلمه فى استمالتى يفضحه سلوكه حيالى .. ظللت أفتش وراءها حتى وقعت يدى على مخزن أسرارها .. رسائل عاطفية من أحد الأشخاص ..

أطلعت زوجى وشقيقه عليها وتقمصت دور الناصح الأمين فوجهتهما إلى عدم مكاشفتها وإختيار أسلوب التضييق وحساب الوقت عليها وأنا أعلم أنها ستقابل ذلك بحدة قد تخلق صداماً عنيفاً بينهم يتغلب فيه جهل شقيقيها وعقلاهما المشتعلان بإستفزازاتى على مكانتها وقدرتها على الإقناع .. وبدأ بالفعل تعنتهما معها . ولكن قبل أن يسفر عن صدام كانت عزة قد أبلغت أبيها برغبة أحد الأشخاص فى التقدم للزواج منها وتحديد موعد للقائه ..

وبت أتخيل فى ذلك العريس المنتظر أقبح الصفات . أراه دميماً

.. أو .. مفلساً .. بخيلاً .. المهم أن يكون شيئاً من زوجى إبراهيم أو كله ويزيد .. وتمنيت أن ينخلق سبب يحول دون إتمام هذه الزيجة ! .. أى سبب . وانتظرت يوم حضوره بشوق يفوق شوق العروس له ! .. رحت أعد لإخراج اللقاء بشكل يستفز الضيف .. أوعز لإبراهيم بأسباب تجعله يميل لرفضه .

وفى اليوم المحدد .. قبل موعد اللقاء بقليل شرعت فى تعبئة أجواء الشقة برائحة سليق أوراق الكرنب الكريهة .. ووفق خطتنا تصنع إبراهيم الاستغراق فى النوم حتى إذا حضر العريس نهض لحضور اللقاء بالبيجامة كنوع من الإستخفاف بالضيف ومناسبة حضوره .. وكانت المفاجأة التى صدمت خيالى فى العريس وتصوراتى والأمنيات التى بت أحلم بها .. فالعريس شاب وسيم يحضرنا كل يوم على شاشة التليفزيون !! .. أشرف عبد الحميد المذيع بالقناة التليفزيونية المستحدثة ؟! .. يدخل الحارة والزقاق ويجالس حماى « الفلاح المتخلف » وإبراهيم المقيت صاحب الخاطر المتعثر .. وأين .. فى بيتنا المتواضع المشبر برائحة سليق الكرنب ؟! .. هو أشرف عبد الحميد رغم ذلك كله يطلب يد عزة من حماى ويصمد أمام « جليطة » زوجى إبراهيم ومحاولاته لإستفزازه ، ويضيق على إبراهيم مدخل الحوار معه حتى يستفز حماى فى النهاية على ابنه فيطرده من المجلس حفاظاً على العريس « اللقطة » .

أيقنت أن ما بين عزة وأشرف هو الحب الأقوى من تدابيرنا وحيلنا .. فقد صار الترتيب لإتمام الزيجة واقعاً يتخطى كل العراقيل التى نبتدعها وإستفزازات إبراهيم لمشاعر أشرف كلما حل ضيفاً .. أفلح أشرف فى إنتزاع عزة بعد مناورات عديدة طالما أصيبت فيها كبرياؤه ومشاعره من قبل الجلف إبراهيم حتى صار الإثنان لا يقبل كلاهما طيف الآخر !! فى حين تحولت مشاعرى قبل أشرف ! ..

فبت أحلم بالشاب الوسيم فارساً مغواراً يقتل فى الفحول الغبية ويقتلع رءوسهم المليئة بالغشم والجهل .. ولكن ليس من أجل عزة .. بل من أجلى ! لينتـزعنى من إبراهيم ومن حسنى .. ومن ماضى بأكمله لأكون له بكل كيانى .. ومشاعرى ترق وتشف لأعود صبية مراهقة يخنقها كتمان سر حبها .. وكان فى وضع عزة لمولودها الأول فرصة انتهزتها لأتقرب إليهم وأبدو أصيلة لا تهمه لى فيما كان قد جرى هناك فى بيت حماى وزوجى ! .. وحدى أنطلع بمهام بت عزة أثناء رقادها عقب ولادتها .. أنظف الشقة وأغسل ملابسها وملابس أشرف والمولود .. وأتحين فرصة تلتقى فيها عيناى بعينى أشرف ..

وواتتنى الفرصة .. تكررت كثيراً ... حملت عينى كل رسائلى

.. صرحت بالحب ونطقت باللوعة .. أحمرت بالإشتياق وأغرورقت بدموع العجز عن فعل شئ فوق الإمكان .. وفى مرة إنفراد أول ما ساءلنى .. سألنى عن دموعى فجعلت من كفى مصباً لها .. مد يده يرفع رأسى عن كفى .

فى حنو يفتش عن السبب وما وجدت غير إبراهيم وعذاباتى معه .. عدم التناسب وفارق العمر والفهم .. ضيقى به وبيته . ووجدت عباراتى الصدى الذى أرجوه .. بلهجة ودود نطقها : الحقيقة هو رجل لا يطاق .. لكن ما باليد حيلة .. بوسعك أن تتخذينى أخاً معيناً لك قدر استطاعته على ظروفك المغايرة .. سعدت بذلك ورحت أطور فى أخوة أشرف لى .. كل مشكلاتى ومشكلات هيام شقيقتى .. ذنبنا الذى فى عنق أمنا .. قصة حياتى .. ثم .. صرحت له بحبى .. رحت أقسم له وأنا أمرغ رأسى فى صدره بأننى أحببته لذاته وللحب .

أصبح أشرف كل شئ فى حياتى بعدما قطعت شوطاً طويلاً للتخلص من حسنى الذى داوم على الشكوى لهيام من انصرافى عنه وظل يطاردنى فى كل مكان حتى استطاعت هيام أن تقنعه بفض العلاقة مهددة إياه بفضحه عند زوجته . كانت معاملة أشرف تتباين بين ثلاثة أوجه .. فهو مرة محب بإسراف .. ومرة مشفق يعامل حالة مرضية أورثتها طبيعة النشأة لا ذنب لها فيها ..

ومرة يتحايل على مارد أنانى حاقد على الدنيا بأسرها ليعيده إلى قمقمه ويحجم عداواته المدمرة .. ولم تكن نظرته لهيام تختلف كثيراً ..

فعندما اكتشفت زوجة سمير علاقة زوجها بهيام وساقت البلطجية يتابعونها ويترصدون لها فى كل مكان وبلغت تهديداتها حد أن تبعث إليها بمن يقتلها وباتت هيام ترجف فى شقتها .. أمام ذلك كله كانت نصيحة أشرف لهيام بأن تخرج الرجل من حياتها بالمرة وتبحث عن غيره !! لم يعتبر بأنها إنسانة يضم صدرها قلباً محباً .. ولا بأنها امرأة أوجب لها أن تنصح بالإرتباط زواجاً بأحدهم !! ..

وجاءت النهاية سريعة تؤكد الوجه الحقيقى لعلاقته بى .. يوم أقنعنى بأننى قادرة على إعادة دماء الأخوة لمجاريها بين عزة وإبراهيم زوجى .. وأن استقدام إبراهيم لبيت أشرف وعزة بواسطتى سينهى كافة الخلافات وتستطيع عزة أن تحصل على حقوقها فى ميراثها من أمها وأبيها الذى كان قد توفى وكان إبراهيم يسوف ويؤجل فى سبل عزة لتحصيلها . وبالفعل أفلحت فى إقناع إبراهيم بأن نزور شقيقته معاً .. وهناك كانت المفاجأة ..

ضمتنا حجرة الصالون .. أنا وإبراهيم زوجى وعزة وأشرف .. ملامح وجهيهما فيها صرامة وإصرار .. على المنضدة وضع

أشرف مسجلاً صغيراً وشرع فى الحديث إلى إبراهيم : عزيزى إبراهيم .. أن كل ممارساتك معى أغفرها لك لأنك فى النهاية شقيق زوجتى عزة .. ولو إستطعت أن أقدم لك خدمة لقدمتها عن طيب خاطر .. وها أنا قد توافرت لى الإستطاعة لأن أسدى لك معروفاً لن تنساه مدى حياتك .. كان بوسعى أن أدع الشر يحيق بك ويمعن فى القصاص لنا ولكنى لست من أهل ذلك .. أننا جميعاً كنا ضحايا شيطان بيننا وسوس لكم فدفعكم على شقيقتكم تكيدون لها ومن يتآلف معها .. شيطان مريض هدمكم ويهدمكم كل لحظة إنها زوجتك هذه التى تجلس بجوارك .

ولما هممت أصد عباراته نظر بحدة فى وجه إبراهيم ووجه إليه كلمات تعنى أن مصلحته تلزمه الضغط على للإمتثال وإلتزام الهدوء بل ومنعى من الإنصراف .. إذ أنه سيدير شرائط الكاسيت التى تؤكد إتهاماته .. وبالفعل أعمل أشرف شرائط الكاسيت ..

وكان صوتى وصوته ... سبابى ولعناتى فى شخص إبراهيم والتعبير عن ضيقى بالحياة فى كنفه .. سلوك أمى وفضيحتنا فى بيتنا على يد والد حسام ووليد .. خياناتى لإبراهيم وشطحاتى مع حسنى .. وقسمى لأشرف بأننى أذوب فيه حباً .. وعندئذ أوقف أشرف الكاسيت وراح يوضح لإبراهيم أنه وعزة رصدا محاولاتى

لهدم علاقتهما الزوجية فسايرانى حتى جمعا تحت أيديهم الدليل المادى الذى يكشف له ويخلصه والعائلة من شرها .

وإنصرفنا .. سرت أمام إبراهيم مطأطأة الرأس مذهولة .. أطيب خاطرى المتوقع لمصيبة على كيانى بقناعتى بضعف شخصية إبراهيم وما يتمتع به من جبن وكونه متيماً بى بحد سرعان ما يذوب معه غضبه وتتلاشى نخوته بمضى أيام قليلة .. ما حسبت أن الرجل فى النهاية هو الرجل ..

وأغفلت أن الدليل هناك . كان قاطعاً .. وقعت المصيبة .. فى الليل نهض إبراهيم .. خنق الولد والبنت وتحول نحوى يطعننى بسكين فى مواضع شتى من جسدى .. ثم لأنه جبان فى الأصل قتل نفسه .. نعم قتل ولده وإبنته ونفسه .. هذا ما دريت به بعد ما أفقت على فراشى بالمستشفى .

* * *

٦٠ - يـوم السـداد

تستفزه دفوع خاطره : إلى أين هى ذاهبة الآن
والوقت غـروب ؟! وكل الذى فـعلتـه يوجـهـهـا
وشعرها . ساقيها وذراعيها المستورة فى البيت
أكثـر من خـارجـه ؟! والخـال نـائم .. دائماً نائم
.. كم وددت أن أنفذ سيخاً مـحـمياً فى جانبه
ليستيقظ من مواته ويتعقبها . شكى يقين .
وها هى تتـأخر .. إلتفت ناحية حجـرة الخال
مقفلة الباب .. أستنطقه النزوع للسخرية منه
وهو ينهض مـتـملمـلاً : ، لعلك أيهـا الخـال
المتـجـبـر تسـرق زجـاجـات العطر الفـاخـر من
مخزون عملك لتتعطر به زوجتك لغيرك بينما
أنت غارق فى عرق نومك !!

* * *

تملكه الخجل من نفسه .. حاول للمرة الأخيرة أن يجعل رأسه يستقيم فوق صدره فى مواجهة التليفزيون .. أفلح لكن .. ما امتثل غير هيكل رأس بعينين ! فمازالت أذناه وحاسة الشم عنده تتجاوز

الخجل فيه وتتابع تنقلها بين الحجرات مروراً بالصالة .. دقات حذائها بحمله الثقيل فوق بلاط الأرضية كأنها مطارق تدق في رأسه معلنة أزوف لحظة الخطر .. تلك اللحظة التي ينخلع فيها قلب «مرعى» الصغير ويتقافز كثور هائج في محيط قفصه الصدرى ! .

لحظة خروجها من البيت .. والعطر الفواح منها كالديزل يسرق محطته في بلدتهم فيدهس ويصرع كل من يصادفه وينطلق فوق قضبان لا نهائية بغير حساب ! ثم هي خطواتها في إتجاه مدخل البيت .. يصمد متشبثاً بعينيه في شاشة التليفزيون .. تعالج مدخل البيت .. ينفتح .. و .. في إلتفاته كحركة رموش عينيه غير إرادية يراها من ظهرها مثل آخر ملمح في آخر عربة يجرها الديزل قبل أن يبتلعه الأفق ! يندفع الباب وراءها بجذبة من يمناها فيحدث فرقعة مخنوقة .. يبقى بعضه يطاحن بعضه وأريج من عطرها لم يخرج معها ! ..

خجل من نفسه .. كيف استباح لنفسه أن تضعها في هذه المكانة عنده ؟! و .. يؤنب نفسه : إنها إمرأة خالك أيها الغبى .. تكبرك بسنين كثيرة .. في مثل عمر أمك .. فرضا .. فرضاً أنها قرأت من عينيك ما توده مفضوحاً عندها ؟! تجاريك أو تخشاك ؟ أم تفضح أمرك عند الخال أو أمك ؟

هذه هي حسبتك فحسب ؟! لا .. ليس كذلك تكون الأصالة أيها العيل ! ثم إنها إمرأة كاملة النضج ومثلك عندها لا يزن أصبعاً في

كفها ! و .. تستفزه دفوع خاطره فيتجاسر ويتحلل من خجله : طيب ؟! .. إلى أين هى ذاهبة الآن والوقت بعد غروب ؟! ،كل الذى فعلته بوجهها وشعرها ؟ وساقيها وذراعيها المستورة فى البيت أكثر من خارجه ؟! والخال نائم .. دائماً نائم ! كم وددت أن أنفذ سيخاً محمياً فى جانبه ليستيقظ من مواته ويتعقبها .. شكى يقين ..

كنت أفر بنفسى لعند حافة الترعة فى قريتنا .. تحت مقدم القنطرة أجلس .. إتفق وخاطرى على عشرعدات يقفز بعدها قرموط داخل ماء الترعة ويصدق حدسى !! وأصادف الكثير من المواقف أشعر يقيناً أننى صادفتها من قبل بشخوصها وتفاعلاتها ، حتى بالعبارات التى تنطق بها تلك الشخوص ! .

وكثيراً ما كنت أتوقع أن أصادف فلاناً أو فلانة عند مرورى من مكان ما ويحدث ذلك حتى صارت لعبة خروجاتى من البيت وسلواى فى قطع المسافات سيراً بين دروب القرية الضيقة .. و .. يتوقف عند سؤال من خاطره يزنقه من جديد فى خانة الخجل من نفسه : سنسلم بأن شكك يقين .. لكن غيرتك لمن ؟ يتملص من خجله لا من سؤال خاطره .. أى غيرة ؟ لا غيرة ولا شئ ! .. غاية ما فى الأمر .. غايته .. أن أستفيق الخال على الحقيقة .. الظالم المتجبر أيضاً يظلم ! من سرق يسرق .. و ..

تتداعى من الذاكرة مشاهد ومواقف .. ضغوط أعمامه على أمه

لتبيعهم فداناً آل إليها عن أبيه المتوفى بثمن بخس .. إصرار الأم على أن تبقى الملكية والحيازة بيدها .. الصراع فى أوجه داخل البيت الريفى الكبير .. يدفعون بزوجاتهم يتحرشون بها ويفتعلن أسباباً للتشاجر معها .. يضربونها .. فى كل مرة يستدعون الخال المتواطئ معهم ينصحها بالبيع حسماً للخلاف ! طالما همست فى أذن « مرعى » بأن موقفها يكون أقوى لو أن الأخوال آزروها . أشقاؤها . لكنهم كنعاج تسوقهم زوجاتهم فى المدينة لا يبرحون مرعاهم .

أما هذا الخال المتواطئ فهو صندوق الشرور كلها .. يعشق التملك و .. يعشق أن يجرد أخوته ، من أسباب الإقتدار على حياة !! ألا تراه يشبه الخنزير .. كل ما يبتلعه فى كرشه ملوث من مادة حقده وظلمه لمن حوله .. وإيه ؟! هو الذى إستخبيناه فابتلعنا ! يوم تزوج أثرنا أن نضعه تحت مظلة جدك وجدتك لئلا يذهب بعيداً فيستغفله الآخرون .. بعد فترة قصيرة كان خاتماً فى إصبع زوجته التى قلبته من الداخل علينا جميعاً ! ماتت جدتك كمداً ولحق بها جدك .. لما توفى جدك الفلاح فى الأصل وقفت على حقيقة غريبة .. يكافئ ظلم وقسوة الابن الذكر ويعاقب عطف وغيرة الإبنة !! كان قد باع لخالك - صورياً - نصف البيت وأكثر من أنصبتنا فى قراريطه الزراعية بقريته . ستبقى أنصبتنا فى ميراثنا معطلة لا تفيد أحداً غيره .. حتى أرادتنا فى بيعها ستظل يغلبها إصراره فى الإبقاء عليها منتفعاً وحيداً !!

البيت جميل .. بنظام الفيلات بناه الجد طابقين من داخل بعضهما .. حجرات كثيرة تحت وأخرى تماثلها فوق لكنها حجرة واحدة سمح بها الخال لمرعى وأمه .. أى عدل ذلك ؟ كان قد سأل أمه منذ ثلاثة شهور .. يومها أجابته : يا ولدى لا تحسب أن أحداً منهم يفعل شيئاً لوجه الله .. إنها مسألة مصالح تلتقى أو تتعارض انظر كم كنا فى بيت القرية وسط أعمامك وزوجاتهم دونما حليف واحد منصف من أخوالك ؟ ويوم إحتدم الصراع بينى وبين أعمامك وأصبح الخيار الوحيد الذى يحفظ على بعض حقى هو أن أتنازل عن حيازة الفدان لأعمامك كمستأجرين بينما أحتفظ أنا بملكيته وأخرج سالمة من بيتهم .

حينئذ ـ اجتمع أخوالك فيما يبدو محاولة لتحقيق إستقرارلنا .. أنا وأنت . وتأمين معيشتنا فى مكان آخر ! وما كان اجتماعهم غير إستثمار لفرصة لاحت .. فرصة أن أكون وأنت كمسمار جحا فى بيت الجد المتفرد فى الإنتفاع به خالك .. شوكة فى قفاه يغرسونها إما يقبل بوخزها المستديم أو يوافق على البيع ويأخذ كل ذى حق حقه ! وسنظل هكذا إلى أن يجد جديد .. حجرة واحدة تحتوينا ويمنعنا خالك بمزاعم واهية من إستحضار أى أثاث يخصنا .. يعدنا ضيوفاً بينما نعد أنفسنا ويعدنا أخوالك الباقون أصحاب دار لنا مثل ماله من حقوق ويمعنون فى التضييق عليه بمداومة زيارتنا فرادى

وجماعات .. لا تحمل هم المطالبة بحجرة أخرى .. هم الذين سيطالبون بذلك من تلقاء أنفسهم ولخدمة مخططهم !! .

الوقت يمر .. اقترب من منتصف الليل . مازالت بالخارج .. لا يعرف بالضبط ما المراد فى نفسه .. إن كانت تبكر بالعودة أو تمعن فى التأخير ؟! فى كل من الحالتين ميزة .. العودة المبكرة توفر فرصة لمطالعة إنطباعها عن إنطلاقاتها خارج البيت فى صفحة وجهها وسلوكها الساعات الباقية حتى النوم .. فرصة أن تجمعهما متابعة السهرة فى شاشة التليفزيون فيعاملها عن قرب !! إما إمعانها فى التأخير فيرضى شماتته فى الخال وفيها !! وها هى تتأخر .. إلتفت ناحية حجرة الخال مقفلة الباب فاستنطقه النزوع للسخرية منه وهو ينهض متململاً قاصداً الطابق العلوى حيث حجرته وأمه : « لعلك أيها الخال المتجبر تسرق زجاجات العطر الفاخر من مخزون عملك لتتعطر به زوجتك لغيرك بينما أنت غارق فى عرق نومك !!

الأم نائمة .. نافذة وحيدة تطل على الشارع الخلفى المظلم فى الجهة القبلية . مازالت تكتنفه حمى الإنتظار .. يطل من النافذة .. لا شئ هناك سوى الظلام ومحض ضوء خافت فوق برج بعيد بعيد وخيالات فى رأسه تصل الماضى بالحاضر وتجمع الميت بالحى ..

يصْمت الحى ويتكلم الميت ! تميز أذنه المتخيلة صوت الجد .. نعم هو صوت الجد وحقيقة هى العبارات التى يرتبها . كأنه عاد

إلى الحياة والفتى مرعى يجالسه .. يحكى الجد العجوز فى تيه كيف إستطاع أن يحقق شيئاً فى المدينة .. الوحيد كان بين إخوته الذى فك الخط .. خرج من تحت إبط أبيه ورحل إلى المدينة يدق أبواب المعارف الذين سبقوا إليها بسنين .. فأية خسارة فى أن يجرب حظه مع المدينة ؟!

لاشئ بين يديه يخشى عليه فتنتها ونباهة أهلها ! هو مجرد كيان فى جلباب .. المدينة أشبه بترعة مليئة بقراميط السمك وهو الصياد يصيد بحجر جلبابه .. مجرد حجر جلبابه ! بوساطة المعارف صار ساعياً بوزارة الصحة .. و .. يواصل مفاخراً بإنتصاراته .. التفانى فى خدمة مديره الحازم أهله لمزايا عديدة ومنافع .. استهوته وظيفة أمين المخزن ..

وظيفة محظوظ صاحبها ! ما من أحد إلا وله حاجة عنده .. ولا شئ بغير ترضية ! تقرب إلى الرجل صار شريك إفطاره اليومى بالمخزن .. ويوم استقر على هدف شغل مكانه راح يرعز لمديره بخطورة بقاء الرجل أميناً للمخزن ويؤكد حاجة المخزن لشخص أمين وأنه يستطيع أن يجمع بين العملين مؤقتاً لصالح العمل .. أصبح أميناً للمخزن والساعى المخلص محل ثقة مديره !!

ثم تفرغ للمخزن بعد تقاعد المدير .. من يومها إكتشف أن المدينة كل أهلها لصوص ومحتالون وعلى من يعايشهم أن يحتال علهيم ويغتنم الفرص قبل أن يلتهموها ويضحكرا عليه فى النهاية !!

فلم يعد يفوت فرصة تلوح ليهتبلها .. كانت شغلانة كلها مكسب .. هكذا قال :

وكم أستحب أن يستعرض صراعه مع أصحاب أرض هذا البيت من قبله . وطالما برر ذلك بمبررات غريبة : كانت محض إمرأة عجوز وابنتها تقيمان عشة فوق جزء من الأرض .. عرضت عليهما أن أشتريها منهما فرفضتا ـ غرست عشة منافسة فى طرف من الأرض فصار الصراع حول من الأسبق بوضع اليد .. حسمته لصالحى لما إستعنت بأصحاب النفوذ من أقارب رؤسائى فى الوزارة فصرت المالك القانونى للأرض ومن ثم إرتفعت بالبناء ليكون هذا البيت .. و .. و .. غاب خيال وصوت الجد ليحل محله ذلك الرجل الجليل بعمامته .. أمام وخطيب مسجد القرية .. لكأنها حلقة الدرس كاملة .. صوته الرخيم يردد :

أن حراماً تجنيه يجلب عليك الأذى والشرور .. أن لم يصيبك فى بدنك أنت ومالك بقى لذريتك ونسلك يتجرعونه .. فليس المقصود بلفظ إبن حرام هو إبن جريمة الزنا فحسب .. فكل حرام يدخل جوف إبنك يجعله ابن حرام .. طعام .. شراب .. حتى الملبس والمقام .. أيها الناس .. أن هانت عليكم أنفسكم فأتقوا الله فى ذريتكم .. و ..

صرف خيال مرعى بزوغ ضوء هناك عند أول الطريق المظلم سيارة تقترب .. تتهادى بينما الوازع فى ضميره يرتب حروف

عبارة ، ربما كنا نجنى ثمار الشر التى غرس بذورها الأجداد ، وتتوقف السيارة قبل ثلث الطريق .. شئ من هدير المحرك يصله .. أحد لا يخرج منها .. بضع دقائق ويخرج أحدهم .. مازال خيالاً لا يتضح .. يتسمع دقات قدميه على الأرض .. هى ذات الدقات . والخيال لامرأة .. هى .. تقترب .. فكرة جهنمية حضرته .. إذا أضاء نور الحجرة رأته فى النافذة .. لكأنه يقول لها : ها أنا قد ضبطك .. خطوة تختصر خطوات كثيرة .. بسرعة أضاء الحجرة وأطل من النافذة .. كأنها ارتبكت ... أيقن أنها رأته .. بعد قليل سمعها تعالج مدخل البيت بمفتاحها الخاص .. أرتمى فى فراشه يستدعى النوم أو يتعجل الصباح !

لا يا أمى سنسلم أنفسنا للكلية غداً .. دعينى أنام الآن .. وكانت أمه اختلط عليها الأمر فحسبت أنه اليوم الذى ينضم فيه طالبًا حديثًا بالحربية .. تعقب : ذاهبة أنا الآن لبيت خالك القريب .. وانصرفت .. بعد قليل أقلقه صفق أبواب الحجرات وحركة دءوب فى الطرقات .. هى .. تنفرد بحملة نظافة مفاجئة .. حدثه وازعه بأنه افتعال تنشد من ورائه استكشاف رد فعل ضبطية الأمس ! هبط إلى الصالة فى الطابق الأرضى .. عادت تدور حوله .. مازال متماسكاً من يقينه بضعف موقفها وتهافتها على الحوار .. ها .. لابد إنها اختارت مساراً للحديث لما بدأته :

- ستكون ضابطاً وسيماً ..

كانت قد وقفت فى مواجهة تنظر فى وجهه كأنها بالفعل تتخيله والكاب العسكرى فوق رأسه .. عادت فى الحال لمكانتها فى نفسه .. عطرها .. شعرها .. ذراعاها .. ساقاها .. فى طفولية متهافتة أجابها :

- ضابطاً وسيماً تنقصه امرأة جميلة مثلك .

- مثلى ؟! .. أنا جميلة ؟!

- هكذا أرى ..

- هه .. الجميلات كثيرات ..

- لكنها أنت ..

- هاها .. أنا أكبرك بكثير !

- يكفينى أننى أطول منك ..

وكأنها تجارى تهافته فى طفولية مماثلة افتعلتها لتكممه برشوة لا وسيلة غيرها . واصلت :

- لكنى أناهزك طولاً ..

- لا .. أنا الأطول .

- هذا ظنك فحسب ..

نهض من مكانه رتقدم نحوها يجذبها من ذراعها اللدنة ليضع كتفهُ فى كتفها . ويهلل وهو يضمها بعنف .. ها .. أنا الأطول ؟ قلت أنا الأُطول .. حتى احتواها بين ذراعيه مستسلمة لضمة

تقدمها طواعية لرشوة الكيان الصغير .. لكن .. دق جرس الباب .. انصرف عنها بسرعة إلى مقعده يتشاغل بصفحة من جريدة قديمة بينما راحت هى تفتح الباب بعد أن مررت يدها فى عجالة على رأسها ووجهها .. كانت والدة مرعى هى التى عادت من الخارج ..

فى اليوم التالى حمل مرعى حقيبته وانصرف إلى كليته بعد أن ودع الجميع .. فى الطريق تراوده الأحلام والأمانى .. كأنه تخرج فى الكلية وصار ضابطاً .. يدعو أمه للإقامة معه بشقة مستقلة بعيدة عن بيت الخال .. ترفض راغبة فى الاحتفاظ بحقها فى بيت أبيها .. يصرخ فى وجهها رغما عنه : يا أمى أنت لا تعلمين الغيب .. اعتبرى الخال قد اشتراه ودفع الثمن .. لسنا فى حاجة لشئ .. و .. انتصر لارادته لما وافقته وذهبت معه .

* * *

٧

أزواج ونجمات لامعات

ماذا جرى لزوجى ؟ .. ذات مرة إستبد بى الضيق من تعليقه على مشهد فى فيلم أجنبى .. كانت إمرأة بعيدة كل البعد عن أن توصف جميلة .. غير أنها كانت غاية فى التبرج والنعومة فى أدائها .. فائقة النحافة شبه عارية تحرك شفتيها بالحوار بطريقة اثارية وعيناها تنطقان بشبق حسى فاضح وماجن .. كلما عادت تتصدر الشاشة قال هو شيئاً : « جميلة .. يا لها من إمرأة حقيقة .. ما أهنأ ذلك الرجل الذى يعايشها »

عند ذلك الحد لم أتمالك نفسى .. ثرت فى وجهه : إيه ؟ماذا جرى لك يا رجل ؟! أتود أن تقول ما أتعسنى بالمرأة التى أعايشها ؟! .. والله ما أتعسنى بك زوجاً متصابياً .. لم أكن نجمة سينمائية تزوجتها واعتزلت بعد الزواج لتأسف على ما فات .. فق يا رجل وإن كان ضرورياً أن تستحسن جميلاتك العاريات

فاجعل ذلك فى ضميرك وخاطرك .. وفى تلك اللحظة كانت ليلى تدق جرس باب شقتنا !! .

***

وددت لو أصرخ بها .. يا ناس . يا هوه .. ليست الصعوبة فى قيام حياة زوجية بكل ما قد يعترضها من ماديات وأدبيات فكلها ربما وجد الناس لها تصريفاً أو آخر ..

إنما الصعوبة الحقيقية تكمن فى الحفاظ على هذه الحياة الزوجية قائمة فى عصر كالذى نعيش فيه !! ..

لماذا ؟ أقولها صراحة ؟ .. هى عدة أسباب . أن الرجل المستهدف من بعض الفتيات والنساء لم يعد بالضرورة هو الرجل الأعزب .. و .. أن الرجل أضبح ، صيدة ، يسهل إصطيادها فى ظل الضغوطات والمشكلات الحياتية الكثيرة عليه ولكونه فى الغاب مستثاراً من مشاهداته اليومية فى الطرقات ومكاتب الأعمال وأفلام الفيديو وكلها لا تخلو من واحدة أو أخرى تراسل الغريزة فيه .. أن شباكهن لم تحبك لتصيد جميعها أزواجاً ، فبعضهن درجن على أن تكون المرأة ، بقرة ، بين رجلين أحدهما يطعمها والآخر يحلبها !! . وآه إن تمرد الرجل بدوافع من هذه !! ..

فهل من ضامن لحصانة حياة زوجية أفضل من خمسة عشر عاماً ، عشرة زوجية ، مستقرة ؟ حقيقة لم تجمعنا قصة حب قبل الزواج ، ولكننا تزوجنا بطريقة محترمة ونوايا جيدة فى إقامة حياة

زوجية ناجحة بكل المقاييس .. تعارفنا فى مناسبة إجتماعية .. بعدها توسل صلاح للعائلة الصديقة أن تجمعنى ورياه فى لقاء واحد يمهد طريقاً للإرتباط .. إلتقينا .. تفاهمنا .. نشأ الود بيننا سريعاً . كنا متكافئين فى كل شئ تقريباً .. المستوى الإجتماعى ،، المادى الثقافى ، حتى فى حدة الطبع والأشياء الأخرى التى لا تتضح إلا بعد الزواج كنا أيضاً متكافئين فيها ..

سارت بنا الأيام على أحسن ما يجب أن تكون .. حياة شبه نموذجية وحضارية قدر الإمكان .. لا أعنى بذلك إنها سارت على وتيرة واحدة تميزها السعادة .. أبداً ... فإن تميز طبعينا بالحدة كان سبباً فى صدامات كثيرة بيننا قد تثور لعلة تافهة .. فأزرار واحد يغيب عن قميص له قد يثير حنقه بشكل متعاظم فتخونه السيطرة على بعض ألفاظه لتصيب لفظة منها كبريائى أو تجرح كرامتى .. وعندها لا أتمالك نفسى - مهما كنت قد عاهدت نفسى فى مرات سابقة على مقابلة حدته بصبر ولين - فأقابلها بلفظة أشد تأثيراً فى كرامته .. يتسع الخلاف .. يخرج وهو ينفخ صهداً ولا ينسى فى كل مرة أن يجذب الباب وراءه بقوة تهز أركان المكان .. لكن الشئ الرائع منى ومنه هو أننا دأبنا تنسى صداماتنا بسرعة ونعود ودودين منسجمين دون أى مقدمات .

فدائماً أعتبر نفسى قد تسرعت بالحدة وم نثم استأهلت ما جرى علىّ منه ، وليس على بعد غير أن أنسى وأغفر .. وأظنه كان يحسبها على نفسه كذلك .. بل إننى ذات مرة تجاوزت حد

التلفظ بعبارة جارحة .. كان تصرفاً مشيناً منى .. إذ بينما كنت أجلس خلف المكتب منهمكة فى إعداد دراسة حول مشروع ما لجهة عملى ، وكان صلاح يجلس فى الركن البعيد يطالع فى كتاب وقد علق سيجارته فى المنفضة ونساها فتدحرجت لتحرق مفرش المنضدة الذى بذلت فى شغله بالإبرة جهداً ووقتاً كثيرين .. ما أن اشتممت رائحة غزله المشتعل حتى تعاظم حنقى واسودت الدنيا فى عينى .. حملت يدى أضخم مرجع على مكتبى وقذفت به بقوة فى وجهه .. لما آلمه واكتشفه فى حجره أعاده إلى وجهى بقوة أحسست معها أنه أطار رأسى من فوق جسدى .. ترجل لناحيتى بسرعة .. كنت أهم لفعل شئ عدائى فى المقابل .. كانت كفه أسرع إلى وجنتى .. وخرج من الحجرة ، بل من البيت .. وبعد وقت عاد وكأن شيئاً لم يكن !! .

أما الذى حدث خلال العامين الأخيرين .. أى بعد عشرة زواج تقارب الثلاثة عشر عاماً فيؤكد أن بعض الثوابت قد اهتزت وأخذت طريقها إلى التغير .. لماذا ؟! .

ربما أننا كلما نكبر تضعف قدرتنا على تحمل الخلافات والصدامات بينما تظل طباعنا غالبة فينا وعلينا .. فمازلنا نتميز بحدة الطبع فى حين فقدنا الكثير من قدرتنا على التسامح والتجاوز تلقائياً عما قد يقع بيننا من صدامات وقتية كما كان يحدث فى الماضى !! فصداماتنا صارت ترتب خصومات بيننا .. تستمر الخصومة يومين أو ثلاثة وربما أسبوعاً نظل خلالها يتجنب كل منا

الآخر وقد لا تعود لنصابها إلا بتدخل ، شيرين ، سواء كان هذا التدخل من منطلق شخصى أو بدفع منى . فشيرين ابنتنا التى يقل عمرها عن عمر زواجنا بحوالى سنة واحدة لها من التأثير على عواطف أبيها ومزاجه ما ليس لشقيقيها اللذين يصغرانها ، فضلاً عن كونها حساسة تستشعر ببساطة تأثر أو انسجام العلاقة منذ وعت صغيرة ربما من شغفها بأبيها الذى أوجد فى داخلها مرصداً لمزاجه يرصد تراوحاته .. وبالطبع لم أكن أدفع بشيرين تعويلاً على ما لها من مكانة أثيرة عنده أو قدرة على إعادة إستقطابه لناحيتى .. فالمسألة لم تكن تجاوز- من وجهة نظرى- أنه فقد مرونة الاستجابة وسرعتها بعد الصدام .. تماماً كما فقدتها أنا أيضاً ولكن بمقدار أقل حدة .. ومن ثم التمسنا فى وسيطنا الذى هو شيرين بديلاً عن تلك المرونة الضائعة !! .

وكان أن فرض صدامنا الأخير وسيطاً خارجياً !! ، ليلى ، شقيقة أعز جاراتى التى تسكن الشقة المقابلة لشقتنا .. ظهرت فى حياتنا منذ شهور تقارب العام .. بالضبط منذ رقدت شقيقتها من مرض عضال .. تعودها فتقوم عنها بمهام البيت وراية أطفالها وزوجها .. قد تمكث عندهم ليومين أو ثلاثة فى الأسبوع أو تداوم فى بعض الأيام على الانصراف إلى بيتها مساء .. فهى مطلقة منذ عدة أعوام وليس فى عنقها مسئولية رعاية أحد . إنها لم تنجب من زيجتها غير أنها تضع يدها على شقة فاخرة فى حى راق كان قد ملكها لاسمها زوجها السابق فى بدء زواجهما .

توطدت علاقتى بليلى فصرنا نستمتع بلقاءتنا ولا نفوّت فرصة لتحقيقها . فأما تحدثنا تليفونياً أو وفرت بعض الوقت لزيارتى أو تواعدنا على الخروج لنتسوق شيئاً لإحدانا .. لطيفة .. مرحة .. أنيقة ومحدثة لبقة لا ينضب ماعون حكاياتها الطريفة ونكاتها .. و... وبالطبع تصادف وجود صلاح فى بعض زيارتها لى .. فى البدء كان بعد استقبالها ينصرف إلى حجرة أخرى ويدع المكان لأحاديثنا .. وبالتدريج صار وجوده فى حضورنا طبيعياً ومن ثم يشارك فى حوار عادى أو تعليق على مسلسل تليفزيونى أو فيلم .. وبالتدريج أيضاً تزاملاً فى التعلق بأفلام الجاسوسية !! .. كانت تحرص فى أغلب المرات على أن تأتى معها بفيلم (فيديو) مختلف من أفلام الجاسوسية كماكان صلاح حريصاً على أن يتصيد فيلماً لم تكن ليلى قد رأته من قبل .. أما أنا فلم تلق هذه النوعية قبولاً عندى .. كنت أقطع الملل الذى ينتابنى منها بأن انصرف لقضاء شئ مفيد ككى ملابس الأولاد أو غسل الصحون أو إعداد مشروبات لثلاثتنا .

فى تلك الفترة كان قد تملّك زوجى ميل غريب لإبداء استحسانه كلما طالعت عيناه امرأة جميلة أو يحسبها جميلة على شاشة التليفزيون أو فى مجلة من المجلا... ومع تنامى هذا الميل فيه أحسسته يختلقه أو يتعمده كنوع من المكايدة لى ! .. زوجى المحترم اعتراه « قدر من السفه » .. بهذا كان يلوك لسان حالى وأنا أراه يخرج عن وقاره وهيبته بتلك الأفاعيل . فهل من المفترض أن

أكون على شاكلة نجمة سينامئية أو حتى فى مستوى أناقتها ؟! .. ماذا جرى لزوجى ؟! .. ذات مرة استبد بى الضيق من تعليقه على مشهد من فيلم أجنبى .. كانت امرأة بعيدة كل البعد أن توصف جميلة .. غير أنها كانت غاية فى التبرج والنعومة فى أدائها .. فائقة النحافة شبه عارية تحرك شفتيها بالحوار بطريقة اثارية وعيناها تنطقان بشيق حسى فاضح وماجن .. كلما عادت تتصدر الشاشة قال هو شيئاً .. « جميلة .. يا لها من امرأة حقيقية ! .. ما أهنأ ذلك الذى يعايشها !! » ، عند ذلك الحد لم اتمالك نفسى .. ثرت فى وجهه : « إيه ؟! .. ماذا جرى لك يا رجل ! .. أتود أن تقول ما أتعسنى بالمرأةالتى أعايشها ؟! .. والله ما أتعسنى بك زوجاً متصابياً ! .. لم أكن نجمة سينمائية تزوجتها واعتزلت بعد الزواج لتأسف على ما فات أو ضاع .. فقْ يا رجل وإن كان ضرورياً أن تستحسن جميلاتك العاريات فاجعلْ ذلك فى ضميرك وخاطرك » .

كل ذلك وهو صامت ينظر إلىّ مشدوها لا تخفى عيناه سعادة بفلاحه فى إثارتى .. ثم .. لا أعرف أكان يحاول معالجة الموقف أو يزيده سوءاً لما قال :

ـ أتحسبين أنى لا أراك جميلة .. اقسم أنك جميلة بكل المقاييس بشرة بيضاء .. عينان خضراوان .. شعر كستنائى ناعم بطبيعته لكن .. شئ ما ينقصك .. اللمعان .. ذلك اللمعان الذى أرى عليه بعض الأخريات .. لمعان يشع من امرأة متواضعة الجمال ، لكنه يجذب الآخرين إليها .. لا أعرف كيف يصبح هكذا ؟! .

لم يعد إزاء ذلك يكفينى ما كنت قلته قبلاً ، فانبريت بحنق ماض أدوس كبريائه كما فعل بى :

- وأنت يا وجيه عصرك . أى لمعان يمكن أن نجده فيك .. صدئ .. نعم أنت رجل صدئ فى خلقك وهيئتك .. أى جمال ولمعان تتحدث عنهما يا شائخ قبل الأوان .. ألا ترى فى مشاهدتك شبّان وسماه يلمعون أيضاً صحبة حسانك المفتون بهن ؟ .. دعنا نطوى صدورنا على ما فيها ونسكت .

وعندئذ قفز من مكانه متوجهاً لناحية حجرته وهو يردد ، امرأة سليطة اللسان .. غبية ، ! ..

واختفى وراء الباب الذى دفعه بقوة ...

فى تلك اللحظة كانت ليلى تدق جرس باب شقتنا .. فتحت الباب مهوشة باكية .. فى دقائق كنت قد أفضيت إليها بتفصيلات ما جرى بينى وبين صلاح .. جرت نحو حجرته تطرق بابها فيما بدا محاولة مخلصة لرأب الصدع وإعادة الحاق للوفاق . لم يتجاوب صلاح مع طرقاتها على الباب .. عادت إلىّ تناشدنى التزام الهدوء لحين تلتم عليه فى صباح اليوم التالى فتعيده آسفاً على ما بدر منه إذ أنها بطبيعة الحالى سوف تعود لبيتها القريب من موقع عمل صلاح حيث تنتظر مرور عامل السباكة عليها لصيانة بعض التلفيات فى وصلات الصرف الصحى بشقتها .. ومن أجل

خاطرى سوف تُبكر بالنزول لتصطنع مصادفة لقائه فيقوم بتوصيلها فى طريقه بسيارته ومن ثم تاح لها فرصة معالجة الخلاف الذى وقع بيننا .

وفى اليوم التالى تأخر صلاح عن موعد عودته إلى البيت .. كلما مر الوقت ازداد أسفى على ما بدر منى ، بل وتمنيت أن يعود من فوره فأنهار فوق صدره باكية معتذرة .. لم أكن أدرى سبباً منطقياً لتفاقم القلق لدى .. لما حل الغروب صرت أطلب ليلى على تليفون منزلها دون أن ألقى إجابة .. لا هى هنا ولا هى هنالك !! .. فى المساء ولم يكن عاد ، عاودت الاتصال فجاوبنى صوتها نائماً أو متناوماً .. قالت أنها جد مرهقة وقد أخذت دشاً دافئاً تتلمس به سبيلاً إلى النوم ! .. وعن الموضوع إياه قال : « اطمئنى . لقد حسمته مع صلاح . سوف أوافيك بالتفصيلات غداً فأنا جد مرهقة وراغبة فى النوم الآن !! .. و .. بعد قليل كان صلاح يدلف من باب الشقة إلى حجرته .. وما لبث أن توجه إلى الحمام .. أخذ دشاً دافئاً وجد به طريقة إلى النوم هو أيضاً !! .

فى الغد المنتظر بشوق منى لو أر وجه ليلى .. فى المساء اختليت بالتليفون أحادثها .. بحماس خافت عن ذى قبل أنها بذلت جهداً لإقناعه بالعودة معتذراً .. وضح أنه مازال متأثراً لكن فى النهاية وعد بمعالجة الأمر عند عودته من العمل .. يقول إنك انفعالية دائماً وحادة الطبع .. منصرفة عنه ، لا تتجملين له ،

عواطفك مصطنعة ، كل شئ نفعليه قضاء واجب فحسب . . هه ..
ألم أقل لك أنه مازال متأثراً .. يحتاج لبعض الوقت حتى يستعيد
نفسه .. حاولى أن تحتويه .

بعد ذلك انقطعت ليلى عن زيارتنا بالمرة .. وأخذ الوفاق يعود
بينى وبين صلاح رويداً رويداً وإن توقف فى النهاية عند حد من
المسالمة الفاترة التى لا تخلص من شك فى حدوث تغيرات
جوهرية فى شخصه وسلوكه .. سلبى إزاء مختلف الأمور الحياتية
داخل البيت .. يتغيب كثيراً عن موعد عودته .. يميل للعزلة والنوم
محاولاتى لا تعود بغير استمالات مؤقتة .. مرات متفرقة مررت
عليه بمكتبه فوجدته إما انصرف مبكراً أو لميحضر إلى العمل من
أصله !! .

فى الواقع لم يكن يساورنى أى شك فى أت تكون هى ليلى ..
بل لنقل أننى كنت بالفعل قد نسيتها بالمرة .. لكن .. لا أعرف أى
خاطر ذلك الذى استحضرها فى مخيلتى يوم مررت على صلاح
فى مكتبه ولم أجده .. محمومة توجهت لناحية بيتها .. عند
الرصيف المقابل وجدت سيارة صلاح ! .. هى أذن ! .. ليلى ؟!
.. ترددت فى الصعود إلى شقتها .. ما جدوى ذلك ؟ .. ربما
كانت المواجهة سبباً للتعجيل بهدم بيتى .. مثل هذه العلاقة لا
تدوم ، فلماذا أوفر لها منطلقاً للمداومة .. حقيقة أنها تنغمص

حياتنا الأسرية لكنها بأى حال لا تدوم .. نزوة .. محض نزوة فلماذا ادفعها بمكاشفتى لانتهاج الشرعية بالزواج ؟! .. آثرت الإنصراف .. عدت لبيتى خائرة مكتئبة ..

وماذا جرى ؟ أسفى على ما جرى من بعد .. لقد كانت ليلى تستهدف صلاح زوجاً .. وافقها فى البدء لكنه عاد واستوقفته استحالة النهوض مادياً من راتبه الوظيفى باعباء بيتين خاصة وأن ليلى ربة بيت لا تعمل ، وإن سعت لعمل الآن وفى هذه المرحلة السنية رغم أن ذلك يخالف طبيعتها فلن تجنى أجراً ينهض بشئ يذكر .. فلم يلبث المتحابان أن اكتفيا بأن يتعاطيا العشق سرقة .. و .. ليس بوسع مثلى غير أن تنتظر الحتمية من أجل أن يظل البيت قائماً يظلل أطفالاً ثلاثة .. !!

* * *

■٨■

مجنون نوادر

، جعلى حظى التعس ضحية انقلاب عمى شوقى وتصابيه ! .. كمراهق صغير يشرع فى مد جسور علاقة ! .. بالنظرات .. كلما رافعت رأسى عن أوراقى وجدت نظراته متشبثة لا يصرفها عنى .. يحاول أن يستلفت انتباهى ، أن يستوقف نظراتى عنده .. أذوب خجلاً وسخرية .. يقلد حركاتى .. طريقة امساكى بالقلم ، استعراضى صفحات دفاترى ، استخدامى للآلة الحاسبة . اتشاغل عنه .. رصد الزملاء محاولاته .. فى حديثهم استشعرت رغبتهم فى أن تستمر الملهاة .. متفرجون .. يتغامزون .. لا أحد يتدخل .. حرت فى أمر الرجل .. محاولاته تتنمى .. يقحم نفسه فى أى حديث أنا طرف فيه . يستدرجونه لعبارات أكثر مباشرة تكشف بعضاً من طواياً نفسه .. يجزم خاطرى بأننى مستهدفة من المراهق المتصابى .. أضيق

بنفسى والمكان .. ابحث عن مخرج .. كيف أصد زحفه المتوغل ؟! .

***

لم يحدث أن ألتقى أحد منا بالست « نوادر » أو رآها من بعيد . أو حتى فى صورة . لكنها رغم ذلك تعيش معنا يوماً بيوم ! .. أتصور أن كلاً من زملاء المكتب ارتسمت بمخيلته صورة لها .. قد تتقارب ملامح هذه الصورة وقد تتباعد .. لكنها على أى حال تكونت من تفاصيل دقيقة عن حياتها الاجتماعية .. أسلوب حديثها .. تفاعلاتها .. علاقاتها بالأهل والجيران وزوجها الأستاذ « شوقى » الزميل الأقدم بالقسم الذى يأتينا كل يوم بأحداث يوم سبقه .. فأنباؤها بذلك تصلنا طازجة أولاً بأول .

بدزت علاقتى بسيرة الست نوادر مع أول يوم التحقت فيه بالعمل فى المصلحة .. لم يتحرج الأستاذ « شوقى » أو العم «شوقى» - كما وجدت الآخرين ينادونه - من أن يواصل دأبه فى سرد دقائق أحداث الأمس فى بيته رغم وجود زميلة جديدة على القسم هى أنا كان موجز حكايته يومها أن زوجته الست « نوادر » تسببت فى نشوب مشادة عنيفة بينه وبين أحد جيرانه لاعتيادها إلقاء القمامة من شرفة منزلهم .. تبينت من انفعلاته وكدمة على الجانب الأيسر من وجهه أن الأمر لم يقف عند حد المشادة ، وإن هذه الكدمة ربما أحدثتها قبضة يد جاره .. ومع إستطراده فى سرد الأحداث

أستشففت أنه قد عاد من موقعة منى فيها بالهزيمة ليصب جام غضبه على زوجته التى إستدرجته إلى هذه الموقعة فما كان نصيبه غير مواجهة عنيفة من « نوادر » المستعفية أخرسته فأمضى ليلته يمضغ الهواء ...

من يومها بدأت تنطبع خطوط الصورة .. صورة إمرأة سادية إكتملت ووضعت فى إطارها فى مجرد بضعة أيام .. فما أن يعود ليقص علينا كيف تحجر على راتبه كقاطع طريق .. كيف تقلب أبناءه عليه .. ثم كيف تتذرع بالأسباب لتحرمه مجرد الإقتراب منها حتى أتخيلها فى لحظات التمنع تلك سجاناً يتلذذ بلهفة أسيره على الماء .. وعندما يقلد نبرة وأسلوب حديثها .. هجماتها الكلامية وتفريعاتها كأنه أحضرها معه .. أراها فى مخيلتى قبيحة تبعث على الغثيان .. أتصورنى أجذبها من شعر رأسها وأطرحها أرضاً وأظل الكز فيها بيدى وأركلها بقدمى حتى لا أدع فيها نفس حياة ..

وفى النهاية آسف كل الأسف إذ إستشعر فى العم « شوقى » خضوعاً وإستسلاماً عجيبين لسجانه المقيت .. وأفطن أن نجاة الرجل من برائن سجانه غير واردة إذ تأقلم على ذلك بحكم عشرة طويلة بينهما تخلف عنها أبناء وحفدة ..

وبمرور الأيام ألفت تلقى شكاوى العم « شوقى » دون أن تترك

فى نفسى أى أثر يكرما ألفها زملائى من قبلى .. وبقى الإستماع لمعاركه مع « نوادر » ، وإبداء التأثر الظاهرى لحاله واجب يومى يفرضه كبر سنه وتسليمنا بأنه متنفسه الوحيد ..

ولا أخفى أن تأثرى القديم بحاله تحول إلى مجاراة للزملاء فى التندر بضعفه وخضوعه وسطوة المرأة عليه كلما أتاح لنا فرصة بإنصرافه من المكتب لقضاء أمر ما ..

وكانت آخر مرة نسمع فيها شيئاً عن الست « نوادر » .. لم تكن شكوى أو نادرة من نوادرها يقصها علينا شوقى مقلداً نبرة وأسلوب حديثها .. إنما كان خبر وفاتها ! .. نجل الأستاذ « شوقى » على التليفون يخطر بأجازة لوالده .. لوقت ساد الصمت زملاء المكتب خبر مفاجئ .. أكاد أجزم بأن مفاجأته تكمن فيما إنطبع فى نفوسنا عن جبروت « نوادر » وإغفال أن الموت سيلحق بها كما يلحق بكل البشر !! .. وبدأت الثرثة ،، ترى سيسعد « شوقى » برحيل جلاده ؟! .. أم أن القط المحب لخناقه سيحزنه مواته ؟! ..

انطلقت بنا سيارة المصلحة .. أنا وزميلين ومعنا معونة وعزاء بقية الزملاء للأستاذ « شوقى » فى محنت .. إستقبلنا بعينين دامعتين .. عزاؤنا فاتر ليس على مستوى المصاب .. حولنا أبناؤه وبعض أقاربه .. الوقت يمر حثيثاً .. لا شئ عن مناقب المتوفاة .. **لسان حالى يحدثنى : بعضنا يموت فيستريح ويريح الآخرين .. قولوا للرجل حمداً لله على نجاتك .. جفف دمعك .. أخرج من**

خضوعك فقد رحل عنك جلادك أهنأ بقية عمرك بحريتك وشفاء صدرك من الغل المكبوت ..

أوصلتنا سيارة المصلحة كل إلى بيته .. فى الطريق الزملاء يثرثرون .. ما نبست بكلمة .. مهمومة أفكر .. أضاهى حالاً بحال لم ألمس حزناً بمعناه فى أحد من أسرة الأستاذ شوقى ! .. يوم توفى زوجى هانت الدنيا فى عينى .. أحسستها لا شئ بعد رحيل الرجل الذى أحببته وعشت فى كنفه سنوات ثلاث .. رجل ليس مثله رجال .. أصالة ورجولة رحيمة . لم أكن تجاوزت العشرين من عمرى يوم تزوجنا .. غمر دنياى فى حب يكفينى عمرى بأكمله . عاهدته فى قرارة نفسى وأنا أشيعه .. سأبقى على عهدك .. بعدك لن يمسنى أحد .. يكفينى حبك وولدى منك .. هذه دنياى .

وبعد مرور عام على وفاته صارعت كل الأصوات التى علت تطالبنى وتلح فى أن أتخلى عن ذكرياتى .. أن أنسى فقيدى حبيب عمرى وأفسح صدرى لحياة يشاركنى فيها رجل آخر .. دائماً كنت أصلد من فولاذ .. لم يفلح أحد فى إقناعى .. إحتضنت ولدى إبن حبيبى .. نفس قسماته .. لون عينيه . أضمه فى صدرى فيهنأ خاطرى بما أود أن أوله ويود أن يسمعه وأعود فأنظر فى صورته .. نظرته عطوف تشبعنى وتصب فى كيانى كل الرغبة فى البقاء على ذكراه والعطاء لولده .. عند بيتى توقفت السيارة .. شاردة أنا .. إستعادنى صوت زميلى : أمازلت متأثرة لوفاة نوادر ؟! .

أجبت : نعم .. علت ضحكاتهم وهم يودعوننى ..

أستفد الأستاذ شوقى مدة تقارب الشهر من رصيد أجازاته عقب وفاة زوجته « نوادر » .. فى البداية إفتقدناه ونوادر وقصص معاركه .. ومع دوامة العمل ومضى الأيام كاد يصعب على أن أتذكر ملامحه مجتمعة .. وما أن إنتهت أجازته حتى فوجئنا به يدخل علينا إنساناً مختلفاً .. نظراته مستأسدة وقد كانت منطفئة مستكينة .. الصبغة السوداء وارت شيب رأسه وحاجبيه ! ..

مفرود القامة فى تكلف ظاهر . يتحدث بصوت مرتفع وكأنه فى مجتمع صم ! .. يمد يده فى سلام بنشوة عصبية ! .. الزملاء يثرثرون .. لعل الرجل جن .. ذهل بحريته كمن يذهل بكنز رصد عليه .. أو خارج لتوه من سجن مؤبد .. يسقط فى غبطته سنوات علاقته بسبحانه « نوادر » من عمره .. يعود بنوازعه لمراهقة ما قبل زواجه منها ! ..

وجعلنى حظى التعس ضحية إنقلاب العم شوقى وتصابيه ! .. كمراهق صغير يشرع فى مد جسور علاقة ! .. بالنظرات .. كما رفعت رأسى عن أوراقى وجدت نظراته متشبثة لا يصرفها عل حياء ! .. يحاول أن يتفلت إنتباهى .. أن يستوقف نظراتى عنده .. أذوب خجلاً وسخرية .. يواصل .. يقلد حركاتى .. طريقه امساكى بالقلم .. إستعراضى صفحات دفاترى .. إستخدامى للآلة الحاسبة أتشاغل عنه .. رصد الزملاء محاولاته .. فى حديثهم أستشعر رغبتهم فى أن تستمر الملهاة .. متفرجون . يتغامزون .. لا أحد يتدخل .. حرت فى أمر الرجل . محاولاته تتنامى .. يقحم نفسه

فى زى حديث أنا طرف فيه .. يستدرجونه لعبارات زكثر مباشرة تكشف بعضاً من طوايا نفسه .. جزم خاطرى برننى مستهدفة من المراهق المتصابى .. أضيق بنفسى والمكان .. أبحث عن مخرج كيف أصد زحفه المتوغل ؟! .. بينما يبحث هو عن مدخل ! .. ألمحه أكثر من مرة فى طريق عودتى لبيتى . يوم العطلة الأسبوعية أطل من شرفتى فأراه عند مدخل المقهى المواجه ! ضاقت الدنيا فى عينى .. مخبول قد يصدر منه شر .. يتجاسر ويدق باب شقتى أو يتقول على بادعاءات من مراهقته تشين سمعتى وسط جيرانى .. أو يعود للزملاء فى العمل بأقاصيص يختلفها ويدعمها بتفصيلات من تحركاتى المعتادة التى يراقبها .. كلها أمور غير مستبعدة .. استقررت على أن الشكوى للزملاء من سلوك العم شوقى أمر غير مستند إلى دليل .. فالرجل لم يحاول مرة أن يحادثنى فى شئ خاص .. سيكون بوسعه أن يرد إدعائى وفى النهاية أكون قد تجنيت على رجل يناهز والدى عمراً ! ..

وبدأت مرحلة جديدة .. التصريح للزملاء برغبته فى الزواج منى .. يوسط الواحد وراء الواحدة .. جميع الوسطاء أبلغتهم رفضى .. وأبلغوه : باقية على عهدها مع المرحوم زوجها .. قسم لا عودة فيه .. العالم بأسره لن يستطيع أن يثنيها عن عزمها .. وامتنع الوسطاء .. لكنه لم يمتنع .. كأن رفضى قد أذهب ما بقى من عقله .. راح يروج عن إتفاقنا على الزواج .. عن أننى أحببته ! .. إنى لا أضع فارق ثلاثين سنة بيننا محل إعتبار ! .. عن رأيى

فى أن الشباب شباب القلب ! .. ما بقى غير أن يستبدل بأثاث شقته آخر حديثاً يليق بعروسه الشابة .. إنه رغم حبه الجارف لى سيبدأ معى بداية أخرى مختلفة عن بدايته مع المرحومة « نوادر » ! .. إه يمتلك ثلاثة أفدنة زراعية ببلدته يستطيع بيعهم و أن يؤسس مملكة أسعد فيها بلا حاجة لراتب وظيفتى ! .. الشائعات والإستفسارات حاصرتنى - إستفزتنى .. جعلتنى أسقط كل إعتبارات منعتنى عن أن أؤدبه على طريقة « نوادر » .. كبر سنة أقدميته .. معاناته التى أعملها . فكانت مواجهة عنيفة لا أظنه ناله مثل ما ناله فيها من نوادر .. كلما تذكرته وقد إنكمش على كرسيه يتلقى تعنيفى دون أن ينطبق برد .. والزملاء يمنعون يدى عن أن تصل إليه دون أن يحرك ساكناً .. كلما تذكرت ذلك أنبت نفسى وحزنت لأجله .. الشعور بالذنب نحو الرجل كاد يقتلنى .. لا أنام الليل .. ماذا لو أننى تجاهلتُ كل ما حدث ؟! .. إنه فى حكم الميت وقد مثلت بجثته !! .. لو أننى شككت للحظة أنه حاضر العقل أقوى من أن يهان لجبنت عن أن أواجهه .. منتهى الخسة منى ! .. وفى النهاية ماذا جنيت من المواجهة ؟ .. ذنب علق بنفسى يمنعنى النوم مرضت بهمه ورقدت فى فراشى مدة أسبوع ..

ذهبت إلى المصلحة بعد أن هدأت أعصابى واستقررت على أن أتقدم باعتذارى للأستاذ « شوقى » .. ما أكثر مفاجآت هذا

الرجل .. أنه أيضاً فى أجازة .. لماذا ؟! .. هل أصابه مكروه ؟ .. وجاءنى الرد : لا .. إنه فى أجازة لمدة عشرة أيام بمحض إرادته عـريس ! .. عـريس ! .. نعم ... حسب مـا أطلعنا .. باع فـداناً وتزوج من إحدى فـتيات قريته .. مشاعر مختلطة إحتوتنى .. عريس ؟ .. إذن هو ما زال فى ذهوله ذاهب عنه عقله .. مزيد من الضياع له وللمسكينة فتاة القرية الصغيرة .. ثم .. ما شأنى أنا ؟ .. كفانى مل لقيته ..

وعاد الأستاذ شوقى بعد إنقضاء عشرة أيام « العسل » .. مفرود القوام فى تكلف .. مجدداً صبغة شعره السوداء .. يمد يده فى سلام بفتوة عصبية .. يتحدث بصوت مرتفع وكأنه فى مجتمع صم .. عبرات كثيرة متناثرة . شماتة المخبول .. ضميرى يجزم بأننى المقصود .. نعم .. يا من رفضت الزواج منى .. تزوجت فتاة .. بتول أصغر منك .. وها أنا عائد بوافر صحتى أثبت أن الشباب شباب القلب .. ليس هذا فحسب .. فقد بدأت معها بداية أخرى مختلفة عن بدايتى مع « نوادر » .. العين الحمراء من أول يوم .. و .. و .. ما أن إستقر على كرسيه حتى حضر مندوب شئون العاملين بالمصلحة يسلمه خطاب شكر بمناسبة الرحالة للمعاش لبلوغه السن القانونية .. أمتنع العم « شوقى » عن الكلام .. جال بنظره فى أرجاء المكتب .. وكأن مفعول سحر زال عنه .. عادت

نظرته منكسرة .. تقوس قوامه .. خانه ساعده المتعصب على المكتب فما بقى شئ على حاله غير صبغة شعره السوداء .. ظنناه يحتضر .. هرولنا نحوه .. وجدناه ألين من أسفنجة يتصبب عرقاً .. سألناه : أى خبر مشئوم حمله لك الخطاب ؟؟ .. أجاب بصوت سمعناه بالكاد ، كبرت خلاص ، .

***

■٩■

البقعة

وتمدد فى الفراش إلى جوارها .. إقتربت منه .. طوقته بذراعها العارى .. بعد لحظة نظرت فى وجهه .. لم تجد منه غير جفون مطبقة وأنفاس النائم المكدود .. فى الصباح إنصرف الطفلان إلى مدرستهما . إنتظرت أن يصحو .. الوقت يمر .. إفتعلت ضوضاء توقظه . بدأ يتململ فى فراشه . يطالب بالهدوء ليواصل نومه ! .. يلعن النوم واليقظة بنبرة من هو بين الحالين . يستبد بها الضيق منه تخلع عنها روبها وتلقى به على طول ذراعها . تقفز إلى جواره . تمرر يدها فوق رأسه وفى أنحاء وجهه . تهمس فى أذنه . تصرخ . قم يا رجل . إلى متى تنام . كانت أصابعه قد صادفت لحم كتفها .. فتح عينيه تلجلجت هى أمام نظرته غير المعبرة عن شئ . مرر يده برفق

على وجهها . ثم كتفها .. أطمأنت .. لكن .
سرعان ما عادت وكأن شيطان قفز فى
جوفها!!..

***

ارتقت درج البيت الضيق .. الضوء شاحب محمر فى ناظريها ظهر كفها الأيسر رأته متوهجاً وكأن الدم يكاد يتفجر منه وهى تستند به رلى « درابزين » السلم .. لكأنها رأت بشرة وجهها بل جلد كل جسمها متوهجاً أو هو شفاف رقيق يشف الدم ألقانى تحته .. صداع ربما من غيره ما أحست وجودها ! .. جسدها خامل ثقيل كأنها تجرجره .. متلهفة لإنفراد بين أربعة حوائط وباب مغلق لتفتش عن ذاتها .. تستدعيها .. تخرجها من جسدها .. تلومها .. تعذبها .. تطرحها فوق فراشها وتنبطح فوقها لتكتم أنفاسها دون أن تعبأ بأناتها .. وتتمرغ فوقها جيئة وذهاباً .. تهمهم بشئ .. كأنها تتوعد نفسها : « ويلك يا نفسى منى حين ألقاك فى إنفرادة !! .

تعالج مدخل الشقة بمفتاحها .. فى الميدالية - غير المفتاح - شريحة معدنية محفورة عليها عظة دينية .. عمدت ألا تلمسها أصابعها كما حرصت ألا تطالعها عيناها ! ..

إنفتح الباب . إستعانت على دفعه بساقها الثقيلة .. دخلت .. أحست بنفسها دخيلة على البيت وهو بيتها لم اطردها منه أحد .. هى .. هى التى طردت نفسها .. تمردت عى مملكتها فى السر ..

تمردت دون أن تعلن أحداً .. وجدت طفليها الصغيرين نائمين فى الأرض أمـام التليـفزيون .. فصلت الكهـرباء عن الجـهـاز ثم عادت فحملت طفليها واحداً تلو الآخر إلى فراشهما .. فى حجرتها وحدها .. إرتمت فوق فراشها .. تغمض عينيها و .. تفتحهما ثم تغمضهما .. ذات الصداع .. تتذكر أنها مازالت بملابس الخروج .. ربما عاد زوجها ويكون النعاس قد تملكها فيراها على ما هى عليه .. نهضت .. إستخلصت رداء نومها من مشبكة .. وجدت نفسها أمـام المرأة الكبـيـرة .. إنتـصـبت .. بدأت تفكفك أزرار بلوزتهـا وسوستة الجيب بتثاقل أو ربما بدلال ! .. كأنها تعيد تمثيل واقعة الساعات الفائتة . ركلت بقدميها فى الهواء لتخلصهما من الحذاء . تماماً كما فعلت هناك .. كادت تخلع بلوزتها أولاً لكنها عادت وأسقطت الجيب وكأنها تصوب خطأ إقترفته .. ثم تخلت عن البلوزة .. وقفت ترمق جسدها البلورى قبل أن تستره برداء نومها .. مشاعر متناقضة إجتاحتها .. أى وحل تمرغت فيه أيها الكيان الذى كنت أراه جميلاً .. حرى بك أن تتهالك أو تحترق من تأجج العار فيك .. لكن . أيهما الذى إستدرجنى . الروح أم أنت .. لا .. لا أظنها روحى .. فالروح شفافة من غير مطالب مادية .. أما أنت فالوجود المادى بكل متطلباته .. أنت مجلبة العار والمتفاعل معه وخزانته .. صرت من لحظتها زمقت كل ما فيك من غير إستثناء وعند ذكر مواطن الجمال جنحت لناحية أخرى .. ففى الحال خالجها السؤال : أى مواطن حسن فيها أرتاها وتعرف عليها فتاها ؟

ذراعاها ؟ .. ساقاها .. ثغرها .. شعرها ؟ .. بالكامل قدها ؟! .. لكن سرعـان ما اعتراها الخجل من نفسـها فاسدلت رداءها فوق جسدها وأعطت ظهرها لمرآتها منصرفة إلى فراشها .

أخذتها سنة من النوم بعد طول تمرغ فى فراشها .. كأنه الحلم .. أرتأت نفسها وقد إنسلخت من جسدها . الجسد يدرأ عن نفسه الوصمة .. تلومينني .. أما صندوق لنفسك وعقلك .. إنقاد لهما دونما أدرك شيئاً من حيلهما .. لدى الدليل بالأمس .. الأمس فقط .. الليلة الفائتة كنت فوق هذا المخدع أعانق زوجك وأبادله المادية بالمادية من توق نفسك وبأوامر من عقلك .. إرتوينا .. ما إعتدت معك حرصاً على إرتواء يومى .. اليوم فحسب إكتشفت علاقة يومنا بالبارحة .. لكأنك بالأمس مقامر يتدرب لمقامرة اليوم .. فيم لومك لى ومقتك لكل ذرة فىّ ؟! .. هى نفسك وتهافتها .. هو عقلك وإختلاله .. لست أنا لست أنا .. وإنتبهت من رنين التليفون المتواصل :

- آلو ...

- أغلب الوقت نائمة ؟!

- أبداً .. بل .. الملل

- عندك حق

- مالك ؟ .. فى نبرة صوتك إحباط ؟!

- هيه .. إنتهينا .. أخيراً سمح لنا بالإنصراف .. قادم الآن ..

وضعت سماعة التليفون .. نظرت فى ساعة الحائط .. تململت فى المطبخ تعد العشاء .. بزهد ترمق الأطباق والملاعق والطعام .. إفطار .. غداً .. عشاء .. عمل بالنهار وبالمساء .. شرود . غربة فى حضن البيت بل على الفراش فى الغرفة .. لا معنى لشئ ؟! . لكن .. ضميرها الموجع يستنطقها : آه يا ماكرة .. كل هذا ليس مبرراً ! تهرول على رنين التليفون المتواصل .. ترفع السماعة : آلو آسف يا حبيبتى .. لقد رجع فى كلامه .. سنستمر فى العمل .. كم كنت مشتاقاً إليك .. وضعت السماعة .. جلست على أقرب كرسى .. إبتسمت سخرية : يقول سوف أحضر الآن .. ثم يعود فيعتذر عن الحضور ! يا له من رجل طيب .. كأنه يرى أن الإعلان عن الحضور أو الإعتذار عنه مهما !! . فيم يحسبنى إحتاجته الآن .. بل وبالأمس .. وغداً ؟! .. الحقيقة أننا لسنا فى حاجة لشئ من ذلك .. تسير الحياة بنفس الإيقاع .. تلخصت فى إفطار غداء عشاء . نوم يقظة قلقة مضطربة .. لا أمل فى أن يتغير شئ .. هى حياة معظم الناس .. التغيير إخلال بالرتم .. ربما أوقف العجلة عند حرمان أعظم وصراعات أوسع .. ربما !! .. اشتمت رائحة ما تنبعث من المطبخ .. هرولت .. أطفأت البوتاجاز .. كشفت الغطاء .. إنبعث الدخان .. إحترق الطعام . أفرغته فى عين الحمام ودفعت وراء ه بالماء .. تلفظت ببعض عبارات : فيما

الأسف .. أليس هذا مصيره بأى حال .. نضيع وراء ه أيام عمرنا ثم نريقه هنا .. كأنها أيامنا . أعمارنا نريقها وندفع وراءًا الماء بجذبة لأكرة السافون !! ..

إيلقت فى فراشها .. غفت .. فى قلب الليل إستشعرت حركة فى الغرفة :

- آه .. لتوك عدت ؟!

- نعم يا حبيبتى .. لقد حرصت على ألا أقلقك

- بل تمنيت أن توقظنى لأراك

- لا عليك .. فسنمضى الغد معاً .. فأنا فى راحة مقابل جهد اليوم .

- حسنا .. يذهب الولدان إلى المدرسة ونبقى وحدنا .

وتمدد فى الفراش إلى جوارها .. إقتربت منه .. طوقته بذراعها العارى .. بعد لحظات نظرت فى وجهه .. لم تجد منه غير جفون مطبقة وأنفاس النائم المكدود ..

فى الصباح إنصرف الطفلان إلى مدرستهما .. إنتظرت أن يصحو .. الوقت يمر .. إفتعلت ضوضاء توقظه .. بدأ يتململ فى فراشه . يطالب بالهدوء ليواصل نومه ! .. يلعن النوم واليقظ بنبرة من هو بين الحالين .. يستبد بها الضيق منه .. تخلع عنها روبها وتلقى به على طول ذراعها .. تقفز إلى جواره .. تمرر يدها فوق رأسه وفى أنحاء وجهه .. تهمس فى أذنه .. تصرخ .. قم يا رجل إلى متى تنام .. الشمس إشتعلت فى عنان السماء ..

لقد زهدت النوم .. زهدت اليقظة فى تفرد .. زهدت الطعام إفطاراً غداء .. عشاء .. قم يا رجل .. كانت أصابعه قد صادفت لحم كتفها .. فتح عينيه .. تلجلجت هى أمام نظرته غير المعبرة عن شئ . إبتسمت .. إبتسم بتثاقل .. مرر يده برفق على وجهها . ثم كتفها .. اطمأنت .. لكن . سرعان ما عادت وكأن شيطان قفز فى جوفها .. تحاول أن تكبت توترها وتحسم ترددها .. مجنونة أنت ؟! .. لا .. بل لابد وزن أعترف له .. بوسعك أن تدعى نفسك عن اسقوط فحسب وينتهى الأمر عند ذلك .. لا .. بل لابد وزن أعترف .. وليكن ما كيون !! .. و .. إتخذت مدخلاً لحوار .. ومزال زوجها يمرر يده على سائر وجها :

- تحبنى ؟

- (أجابها فى دهشة) : لكأنك تعودى بنا للبداية .. سنة أولى حب !

- فقط اجبنى .. تحبنى ؟

- نعم ياسيدتى .. أحبك كل الحب .. لكن .. فيما ظنك .. اقسم أننى تأخرت فى العمل .

- اثق فى اخلاصك ولكن ..

- لكن ؟! .. لكن ماذا ؟!

- نتحاور فحسب .. هب أن أحدهم غازلنى بالطريق ؟

- الجميلات عرضة دائما لمغازلة الرجال ..

- هذا كل ما عندك ؟!

- نعم .. بل أن أهم ما فى الأمر هو صدى المغازلة عند المرأة .. هل تستجيب فتقع فى شرك الرجل أم تبقى على اعتدادها بذاتها فلا تعير ذلك اهتماما ؟ .. ؟

- وهل أنا حقا جميلة ؟

- جميلة الجميلات .. واثق فى اعتدادك بذاتك ..

وبدت غيرته عليها فى عينيه .. على قدر ما طمأنتها على فرط حبه لها كانت مخيفة يتمارج فيها وميض كأنه البرق يصعق فى خياله كل من تهفو نفسه الاقتراب منها .. ارتعبت من ذلك البريق .. الجمها عن مواصلة الحوار فى الوقت الذى استنهضت فيه الغيرة كل ذرة من كيان زوجها الذى راح يطوقها بقوة ويعتصرها فى صدره وهى تدعوه أن يحتويها أكثر فأكثر فى حين دست وجهها فى صدره تجفف دموعها أولا بأول فى قميصه حتى لا يكتشفها .. و .. يفرقهما رنين التليفون .. وضع السماعة وهو ينظر فى وجهها أسفًا .. سرعان ما خمنت السبب .. ويطلبونك حالاً فى المكتب .. أليس كذلك ؟ .. نعم .. معذرة حبيبتى .

صارت وحيدة من جديد .. تمددت فى فراشها .. عيناها فى سقف الغرفة .. من صفاء لونه استرخت واستقرت .. لا فائدة من الاضطراع .. الرأى السديد ألا تعاود فعلتها فحسب .. تنسى أو تتناسى .. تفتح صفحة جديدة نظيفة من غير ذات البقعة .. و .. يباغتها الرنين الكئيب .. ويستفز كل ذرة فى كيانها .. ترد أو لا ترد .. تمتنع .. يتواصل الرنين .. ترفع السماعة فيصلها صوته :

- البقعة ؟! .. اقصد هو أنت ؟

- نعم أنا المتيم الولهان .

- من أين تحادثنى ؟

- من البيت يا حياتى

- أما من عمل يأخذك من بيتك هذا ؟!

- أننى أدير أعمالى واسيطر عليها من خلال التليفون..

- والفراغ ؟!

- أى فراغ ؟ .. وسائل كثيرة تغلبنى عليه .

- وأنا كنت إحدى هذه الوسائل ؟

- اطلاقا .. أنا أحبك حقا .. اتمنى لو تكونى لى .

- زوجة ؟

- زوجة وسيدة قصر لا نفترق لدقيقة .. آه لو أنك مستقلة .. المهم الآن .. سأراك اليوم أم غداً ؟

- ستراني .. مؤكد .. يوم احصل على استقلالي .

- تضع السماعة .. تدور حول نفسها .. تقطع الغرفة جيئة وذهابا .. دموعها تتهافت على وجنتيها .. يرتعد جسدها .. كأنها ابتلعت عفريتا .. رفعت سماعة التليفون بيد مرتعشة .. طلبت زوجها في مكتبه : « لا .. لست قلقة .. وقتما تشاء عُد .. لكن .. ارجوك طلقني .. أبدا .. هذا قراري لصالحنا معا .. اطلاقا .. لارجعة فيه » .

* * *

١٠

بعض ما يحدث

النساء صنفان إذا عشقن .. فمنهن من يطلبن الطلاق ويسعين له ، وذلك فى حالة إفتقادهن للحب والمال فى آن واحد .. والأخريات يقررن الإستمرار فى كنف الزوج مع إقامة علاقة حميمة مع غير أزواجهن . وهن النسوة اللائى يفتقد الحب فى أزواجهن الذين يتمتعون بقدرات مادية يعجز عنها العشيق ! . وأى من الصنفين يقتل عند بلوغه مرحلة معينة من الإستفزاز .. لقد خلقت المرأة تتحمل كل شئ من زوجها .. أهنالك أبلغ من أن يتزوج عليها ؟! .. لكن .. لكنها لا تتحمل بأى حال ميل قلبها وهواها لرجل .. المرأة لا تقتل زوجها إلا إذا عشقت غيره ، ودعك من كل ما يقال من دوافع ومبررات .. أليست هى الطرف المقيد بالعلاقة الزوجية ؟!

***

كلٌ إنشغل فى نصيبه من تورتة عيد الميلاد .. تهمس «إجلال» فى أذن جارتها : ألم أقل لك ؟! .. لا يفوت لى فرصة واحدة . أشعر وكأن عقلى بلا غطاء يستر أفكارى وتوجهاتى عن عينى « خالد » .. أرانى بلهاء .. ساذجة . مقروءة كل سكنة أو حركة لى من زوجى !! .. حتى هدية عيد ميلاده .. وددت لو أجعلها مفاجأة .. أخيرة ولو مرة ..

إنتظرت عودته إلى البيت قبل حضور ضيوفنا .. كل شئ جاهز .. وسؤالى مدخلى لمفاجأتى حاضر على لسانى : لك أن تخمن ماذا سأقدم لك فى عيد ميلادك هذا العام ؟ .. لكنه سبقنى وسؤالى .. دلف من مدخل الشقة .. طوقنى بذراعيه .. همس فى أذنى بعد قبلة « بوسعك أت ترينى هديتك لى الآن .. أليس هو الروب الأزرق ؟! » .. دهشت .. حقيقة دهشت ! .. فهو الروب الأزرق ليس غيره ! .. لكن من أداره ؟! .. منذ عشرة شهور مضت كنا هناك فى أحد ُمحال وسط المدينة .. كأشياء أخرى عديدة أستوقفنا الروب الأزرق المعروض فى الفاترينة .. لم أقل شيئاً غير أنه جميل ويناسبه .. وزكثر من شئ قلت عنه أنه جميل ورأيت أنه يناسبه ! .. من وقتها لم يرد ذكر الروب الأزرق على لسانى لكنى فى قرارة نفسى كنت فى إستقررت على أن أجعله هديتى له فى عيد ميلاده القادم .. و .. تبتسم جارتها معقبة : إنه الحب يا عزيزتى .. الحب عند قمته يبدو كالتوحد .. إنصهر

حبيبك فيك .. حتى أنا أكاد أرى وجهيكما متشابهين كأنكما أخان أو أبناء عممة ! .. ياليت كل الأزواج كزوجك ! .. و .. فى سخرية ترد إجلال همسة جارتها : نعم يكونون مثل زوجى .. يقرءون أدمغة زوجاتهم بالحرف .. يحققون أمانيهن من قبل أن يتمنين عليهم . وتصلهم سكنات الزوجات وحركاتهن وكأنهن مرصودات من عدسات تليفزيونية متخفية .. وليبات عقل المرأة وخاطرها فى ركن صغير من رأس زوجها ! .

وينصرف الضيوف .. فى المؤخرة كانت جارتها وزوجها « نبيل » .. توصد إجلال باب شقتها بعد إشارة تفهمتها من نبيل فى غفلة من زوجته ! .. و .. تعود لزوجها .. حوار حول جلسة اليوم فى القضية إياها :

ـ ها .. فاتك أن تسأليننى عن فحوى جلسة اليوم ؟!

ـ ياه ؟! . كدت أسألك لولا أنك سبقتنى ! . ها .. ماذا فعلتم اليوم ؟

ـ المتهمة موقفها حرج للغاية .. اعترافها فى محضر الشرطة .. ثم النيابة . كما أن الزوج كان عاجزاً عن الحركة من مرضه بالشلل ما ينفى أى تشكيك بأنها كانت فى حالة دفاع عن النفس ..

ـ إنما .. هى حقيقة قتلت من أجل عشيق ؟ .. صغيرة هى .. أليس كذلك ؟

ـ كان فى ضعف عمرها و .. مريض منذ فترة .. من عجزه

كان مستبداً عنيفاً .. أحبت أحد أقاربه .. شاب فى مثل عمرها .. لما استبد بها غرامها سعت لتفرض وجوداً شبه دائم لحبيبها الشاب على إرادة زوجها العاجز .. رفض .. هددها بأن يفضح سلوكها وحبيبها لدى من يزورونه من الأقارب .. فكان الدافع للقتل ! ..

- أما كان بوسعها أن تطلب الطلاق من زوجها العاجز لتتزوج من حبيبها ؟!

- النساء صنفان إذا عشقن .. فمنهن من يطلبن الطلاق ويسعين له، وذلك فى حالة إفتقادهن للحب والمال فى آن واحد .. والأخريات يقررن الإستمرار فى كنف الزوج مع إقامة علاقة حميمة مع غير أزواجهن .. وهن النسوة اللائى يفتقدن الحب فى أزواجهن الذين يتمتعون بقدرات مادية يعجز عنها العشيق ! .. وأى من الصنفين يقتل عند بلوغه مرحلة معينة من الإستفزاز ..

- لكنها المرة الثالثة التى توكلك فيها امرأة قتلت زوجها للدفاع عنها؟!

- لعله توفيقى فى القضيتين السابقتين .. فى القضية الأولى كان القاتل هو نجل المتهمة القاصر الذى لم يتحمل جور زوج أمه بها وأذلاله وإصراره على أنها تونه مع رجل آخر .. قتل الولد زوج أمه لكن الأم إستماتت لتبرئ نجلها وتحمل وزر جرمه .. بل أنها تمنت لو تخرج ونجلها بلا تهمة وكأن مقتل زوجها لا يستأهل عقوبة .. أى عقوبة ! أما القضية الثانية فقد إستطعت أن أثبت أن

المتهمة كانت في حالة دفاع عن النفس في موجهة تعد سافر من زوجها ..

ـ رغم ذلك . أما كان للأولى والثانية عشاق من غير زوجيهما ؟ .

ـ بالطبع كان لهما عشاق .. لقد لقت المرأة تتحمل كل شئ من زوجها .. أهنالك أبلغ من أن يتزوج عليها ؟! .. لكن .. لكنها لا تتحمل بأى حال ميل قلبها وهواها لرجل ..

المرأة لا تقتل زوجها إلا إذا عشقت غيره ودعك من كل ما يقال من دوافع ومبررات .. أليست هى الطرف المقيد بالعلاقة الزوجية ؟!

ـ والحل ؟!

ـ الحل هو : أن يقبل الرجل الهزيمة بروح رياضية .. إذا طلبت زوجته الطلاق أو تكشف له ميلها لآخر ، أو إنصرفت عنه بمشاعرها ينسحب بهدوء .. لا يأبه بأى خسائر مادية .. ليترك الجمل بما حمل وينجو بحياته .. لكن كيف تقولين ذلك لرجل شرقى ؟!

. أدارت إجلال وجهها تخفى إبتسامة ساخرة ألحت على شفتيها .. و .. إنطفأت الأنوار ليخلدان إلى النوم بعد دأب منه لخدمة مشاعرها!..

فى الصباح كانت تلبى الإشارة التى تلقتها ليلة أمس من نبيل زوج جارتها .. موسيقى وسيم يبدأ عمله مع حلول المساء .. عازف هو بإحدى كبريات الفرق الموسيقية .. بدأت علاقتهما بتبادل الشكوى من طرفى علاقتيهما الزوجية .. إنطلق الإعجاب يتصاعد حتى بلغ حد العشق .. معظم الصباحات تمضيها معه بعد إنصراف زوجته إلى عملها وزوجها إلى المحكمة ..

شيطان العشق يلح فى ضرورة الفرار من المكابدة والإرتباط زواجاً ! .. ما عادا يطيقان الإفتراق .. هذه المرة دقت باب شقته دخلت فى صدره متهللة بالفرحة وهو يحتويها بذراعيه :

- ها .. أرى فى عينيك كل السعادة اليوم ..

- نعم .. إقتربت من حريتى .. بل إقتربنا من حلم عمرنا ..

- كيف ؟!

- بالأمس دار بينى وخالد حوار .. عن .. عن الزوجات قاتلات أزواجهن اللائى باشر قضاياهن . أتعرف ما هو أهم ما ورد على لسانه؟!

- هه .. ما هو ؟!

- قال إن الحل هو أن يقبل الرجل الهزيمة بروح رياضية .. إذا طلبت زوجته الطلاق أو تكشف له ميلها لآخر ، أو إنصرفت عنه

بمشاعرها .. ينسحب بهدوء .. لا يأبه بأية خسائر مادية .. ليترك الجمل بما حمل وينجو بحياته !! .. لكن كيف تقولين ذلك لرجل شرقى ؟!

- وما فى ذلك ؟! .. أليس هو الآخر رجل شرقى ؟!

- نعم ولكن .. أولك .. دعنى أنا أتصرف ولتكن أنت بعيداً عن ذلك .

- وبقى بعض الوقت قبل أن يعود زوجها من مرافعاته بالمحكمة أمضته مع نبيل يحلمان باليوم الذى تكتسب فيه حريتها ليتزوجا محققين نصراً عظيماً لحبهما !

عند عودته من المحكمة صحبه أحد صغار المحامين الذين يتلقون فترة تدريبهم الأولى بمكتبة .. دار الحوار بينهما حول ظروف المرأة قاتلة زوجها ثم امتد إلى الظاهرة ككل .. وتفرع إلى المطلوب من الرجل الآن .. أى رجل .. بلسان مجرب يتحدث خالد : على الرجل أن يمسك بزمام الأمور .. يحتضن رأس إمرأته .. يشعرها أن سكناتها وحركاتها مرصودة منه ولا تخفى عليه خافية منها .. الأمر لن يكلفه الكثير .. محض متابعة لميولها الشرائية وعلاقات حميمة ببعض أفراد عائلتها يستقى منهم لو عبر التليفون بعض معلومات عما دار بينهم فى زيارتها المنفردة إليهم

بإسلوب لا يدع مجالاً للشك .. وطالما إكتشفت المرأة قدرات زوجها فى هذا المجال نأت بنفسها عما يشين سلوكها .. لكأنها رقابة بغير رقابة .. فمن ذا الذى سيتفرغ لمتابعة زوجته كل الوقت ؟! ..

وكان مساء خميس .. عادة لا يذهب إلى مكتبة مساء كل خميس ويبيت طارق نجلهما لدى جدته بالعمارة المجاورة .. بدأ الأمسية بمتابعة مسلسل المساء اليومى .. بعده راح يستعرض قواه الخارقة فى التعرف على حركاتها وتوجهاتها كما العرافين والسحرة ! .. بلغت قمة إستفزازها .. نطقتها فجائية فى وجهه . لننفصل .. طلقنى .. دهش الرجل .. إستوقفها عند الكلمة .. هه .. ماذا قلت ؟! .. بملئ فمها قالتها .. طلقنى .. عاودها يتثبت : لعلك تمزحين أو .. أو جننت ؟! .. وتعقب لهفانة لرد فعل شاف : لا هذا ولا ذاك .. ألم تقل قبلاً أنه على الرجل أن يتقبل الهزيمة بروح رياضية إذا طلبت زوجته الطلاق أو .. أو .. يترك الجمل بما حمل ولا يأبه خسائر مادية بل ينجو بحياته .. أنا أطلب منك الطلاق متنازلة عن أية حقوق مادية .. أى لا خسائر بالنسبة لك .. طلقنى احتد مكابراً : لماذا ؟ .. لا .. لا لن يكون .. سأدع لك فرصة تستعيدين فيها عقلك .. وإصرف إلى فراشه بينما أثرت هى النوم فى حجرة إبنها ! ..

لعدة أيام كثف خالد من متابعته لحركة زوجته وتصرفاتها .. لم يتبين سلوكاً مختلفاً .. ما من شئ يشينها .. لكنه الشك مازال

يستأثر برأسه .. لماذا تطلب الطلاق ولا يكاد ينصبها شئ على الإطلاق ؟! .. لماذا ؟! .. لابد وآخر أوعدها بشئ ! .. تحب .. معقولة ؟! ..

أن ما من أحد ظهر على ساحتها ؟! .. تابع إنطلاقاتها خارج البيت رغم أنها دائماً تستأذنه فيها .. كثيراً ما توارى بالقرب من مدخل العمارة يراقب أن تخرج مرة فى الصباح غير مستأذنة منه ولم يحدث .. لكن .. غرباء كثيرون يمرون من مدخل العمارة فى الصباح .. هناك معامل تحاليل وستوديوهات تصوير و .. و .. لعل غريمه يزورها فى الصباح ضمن من يمرون من المدخل .. فى صباح خرج وتغيب لساعة .. عاد يتسلل إلى شقته .. عالج المدخل بمفتاح .. بحث عنها فلم يجدها بالشقة .. وما كانت قد خرجت من مدخل العمارة الذى ظل يراقبه طوال الساعة الماضية ؟! .. جلس فى الصالة من المدخل المفتوح. بعد ساعة ونصف رمقها تخرج من شقة جارتها التى كان قد إلتقاها صباحاً عند ذهابها إلى عملها ! .. مازال لا يصدق حدسه .. ، عند جارتى ، أجابت على سؤاله .. وصل وهو مستوقفها عند مدخل الشقة .. أمضيت ساعة ونصف الساعة أنتظر عودتك .. ماذا كنتما تفعلان ؟! .. أجابت فى تحد : شئون نسائية .. ما دخلك أنت ؟! .. جذبها من ذراعها نحو شقة جارتهم .. ضغط عليا لجرس .. فتح الباب نبيل زوج الجارة .. سأله خالد عن زوجته فأجابه بأنها ذهبت إلى عملها منذ الصباح الباكر . عاد ويقينه يملز قلبه حسرة .. دفعها إلى داخل

الشقة وأوصد الباب عليهما .. ضرب مبرح وإنذار أخير !! .. ثم يتوسط الحجرة وهو يلهث :

- الآن عرفت الدافع وراء طلبك للطلاق .. ها .. أحسبت أننى أطلقك لتتزوجى من عشيقك .. إنه أمر أبعد لعينك من أن ترى حلمة أذنك .. سأنتقل بك إلى سكن آخر .. وستعيشين معى بقية عمرك ذليلة حتى تكفرى عن ذنبك بأن تقتلى نفسك بيدك فلست بالذى يبدد مستقبله من أجل إمرأة خائنة ! ! ..

من يومها ومراحل الإذلال تتعاقب فى تصاعد بينما يواصل خالد سعيه لتدبير سكن آخر بعيد .. وفى مرة غداء أحس بشئ كما الخنجر يمزق أحشاءه . أيقن أنه السم .. إرتمى على الأرض يتلوى وهو يصرخ معاتباً زوجته بينما راحت هى تجمع الأطباق من على المائدة وتغسلها لتمحو أى أثر لجريمتها .. عادت من المطبخ لتجده قد وضع لتوه سماعة التليفون وما هى إلا دقائق حتى وصل شقيقه لتلقهما سيارته إلى المستشفى .. وظلت بعدها تنتظر عودته المنتقمة لكنه لم يعد . محض محادثة تليفونية .. هو : لا تخافى .. لقد طلقتك بالفعل .. أيام وتصلك الورقة .. أعلم أنك قد دسست السم فى « الشوربة » .. ترى ماذا كنت ستفعلين بجثتى ؟! .. يا اااااه ...

■١١■ قطار العشق

نائمة كتمثال تحت الترميم .. وجهها يلمع بالكريمات وشعرها ملفوف فوق كرات بمشابك كثيرة تحت شبكة سوداء .. و . وصفات تطبقها على كفيها وقدميها !! .. وقف يتأملها فى حنق وغيظ .. تمثال غبى مستفز .. لكزها فى كتفها : « قومى بقى يا كريمة .. أجابته فى حدة دون أن تغير من وضعها : أى . أتركنى لمدة نصف ساعة .. قال : لا عليك لتكن ساعة .. ساعتين . ثلاثاً أو حتى الصباح .. قالها وهو ينصرف إلى الحجرة الأخرى ليبدل ملابسه ويلقى بجسده فوق السرير يستجدى سلطان النوم . بعد نصف ساعة سمع وقع قدميها . تصنع الإستغراق فى النوم . نادته بإستهانة : حسن يا حسن .. إستدارت وهى تحدث نفسها : نمت ؟ أحسن برضه » .

***

يشعر بنفسه ينهار وهى الهوة التى تتلقى سقوطه ! .. أو هى

التى تنهار ويتلقاها .. لا .. بل كلاهما يزحف نحو الآخر ليدفعه للسقوط فى كيانه الذى صار كبلر تجلجل فيه دقات قلبه الواجف !! زحفاً متحسباً لأن ينكشف أيهما الأسبق إلى نقطة التلاقى . نقطة الإنتحار حباً !! .. عشرة شهور .. كل شئ صار يحمل معنيين .. الكلام .. مصافحة اليد لليد . توهة العيون .. حتى الصمت وحيرة الجفون .

خرج من عندها بضمير موجوع .. كان طفلها يدور حوله ويداعبه .. يعدو بين الحجرات ويعود ليحتضن ساقيه ويضحك إلى أن استأثر به سلطان النوم وهو فى صدره .. لفحت أنفاسها وجهه وهى تحمل عنه طفلها إلى مخدعه .. كانت عيناه على وجه الطفل صورة مطابقة لوجه أبيه .. صديقه « عزت » .. عادت سناء ليستكملا حديثهما .. كان مدخله السعادة .. سعادة الطفل وسعادة الكبار .. تعرت الكلمات من أردية الخوف والتحسب لتنزلق فى مراميها ! .. لكأنهما أتفقا على المبدأ .. « السعادة دوماً منقوصة ، لأنها مرهونة بمواقف وتفعلات شركاذننا فى الحياة ! .. كلاهما تعيس شقى .. لا يروقه لون حياته .. زوجته الجميلة « كريمة » مستبدة متعالية حتى على عواطفها و .. تحير الزطباء فى غياب قدرتهما على الإنجاب . و .. زوجها المسافر شره للمال ، أنانى ضعيف الشخصية إلى حد بيديها فى أوساط عائلتها وجيرانها امرأة بلا رجل و .. إنتهى حديثهما عند نقطة قريبة من التلاقى . لحظة الوداع إستقرت يدها فى كفه وقتاً أطول والتقت عيونهما فى نظرة

تنطق لغة تعانق حروفها بعضها البعض .. مشى يتلفت وكأنه مراقب !! .. فائرة مشاعره .. ينزع لأن يحادث نفسه بصوت عال لكنه يتحسب لأن يتسمعه رقيبه !! .. يزم شفتيه .. يكاد يبتلع لسانه ترتد الكلمات لتسقط خواطر فى صدره : صرحت سناء بميلها ؟! .. لا .. بل لم تصرح بعد ! .. إيه ؟! .. أن هذا أوضح ما يمكن أن تقوله إمرأة فى مثل ظروفها .. آه .. لعل رفضى للون حياتى قد بلغها .. نعم بلغها .. و . ربما تمنت لحظتها كما تمنيت أن تحدث مبادلة .. (يضحك سخرية) . أن كريمة زوجتى مع « عزت » تتوافق طبائعهما ويمكن أن يكونا زوجين منسجمين !! . آه .. لطالما ألمح إلى تسليمه بالفارق الجمالى بين « كريمة » زوجتى و « سناء » زوجته !.. يحسدنى إذن ؟! .. بل .. وربما كان تفوق جمال زوجتى مبعث يقينه من أنى خير من يرعى بيته فى سفره !

يا لخيبتك ؟! .. أهو الجمال مجرد عيون ملتانة وبشرة بيضاء وشعر مصفر ؟! .. ها هى « سناء » متواضعة الجمال تبدو فى عينى ملكة جمال متوجة .. عيناها السوداوان تبتلعاننى فى غموضهما الآسر الحزين . فيهما عمق المشاعر الأنثوية وحسايتها لهجة حديثها الراقية المتناغمة مع حبها للحياة والناس .. ذوقها الرفيع .. لمسة يدها التى تضيف جمالاً لكل شئ تمسه .. خطوها الرشيق وأرديتها البسيطة الأنيقة .. عطرها .. ضحكتها .. نا وهى عالم مختلف ينبض حياة حركة وحباً ورفاهيته !! .. لكن .. تعود صورة صديقه لتتجسد فى مخيلته .. لكأنه يحتكم إليه فما ورد

عليل سان زوجته من مطاعن فى شخصه .. يلوك لسانه بإجابة : شره للمال هذه حقيقة ، إنما لم ألحظ فيك مظاهر بخل أو أنانية .. طى بوخجول فحسب .. لكن أعذرنى لقد أصبحت أرى الرجل مختلفاً مع أصدقائه عنه مع زوجته .. ربما كان حكم المرأة على زوجها أصدق من حكم صديقه . . هى التى تعايشه طوال الوقت وترى فيه ما لا يريه لأحد .. و .. عند مدخل بيته ينفض رأسه من صورة صديقه ..

نائمة ، كريمة ، كتمثال تحت الترميم .. وجهها يلمع بالكريمات وشعرها ملفوف فوق كرات بمشابك كثيرة تحت شبكة سوداء .. و .. وصفات تطبقها على كفيها وقدميها ! .. وقف يتأملها فى حنق وغيظ . تمثال غبى مستفز .. همس بها فى أذن نفسه !! لكزها فى كتفها .. ،قومى بقى يا كريمة ، ..

أجابته فى حدة دون أن تغير من وضعها : ، أى .. أتركنى لمدة نصف ساعة .. قال : لا عليك لتكن ساعة .. ساعتين .. ثلاثاً أو حتى الصباح .. قالها وهو ينصرف إلى الحجرة الأخرى ليبدل ملابسه ويلقى بجسده فوق السرير يستجدى سلطان النوم .. بعد نصف ساعة سمع وقع قدميها فى إتجاه الحجرة .. تصنع الإستغراق فيا لنوم . من بين شعيرات رموشه يراقبها .. إقتربت من السرير . نادته بإستهانة : ، حسن .. يا حسن ، .. إستمر يتصنع النوم .. إستدارت تخطو نحو المرآة وهى تحدث نفسها .. ، نمت .. أحسن برضه ، .. فى مواجهة المرآة راحت تراجع الكرات

المصفوفة فوق رأسها وتتحسس بشرة وجهها .. يتأملها .. وإنصرفت من الحجرة دون أن تعاود مناداته أو حتى النظر إلى حيث يرقد !! .. ظل يتمرغ فى فراشه إلى أن تملكه سلطان النوم ..

بعد أيام ذهب إلى « سناء » وقد أنهى إجراءات إلحاق ابنها بالمدرسة الخاصة .. كانت أمنية مستعصية .. الفرحة فى عينيها تبهج دنيا بأسرها .. شدت على يده .. سطح كفه .. بقيت يدها نائمة فيك كفه !! تلاقت عيونها .. بقىَ الصمت بينهما . انسحبت الفرحة الطفولية من عينيها وعاد إليهما الغموض الآسر الحزين .. أحس بيدها تنسحب فاستمسك بها .. إعتصرها فى كفه وهو يقربها من قلبه .. أنفاسها تسعر الظاهر من رقبته بين دفتى ياقة قميصه ..

يتلوى قلبه فى صدره من رائحة عطرها .. إلتقفهما غول الحرمان فبدياً كمراهقين لم يستطيعا التزاوج من قبل . عادا وكأن كل ناس الدنيا التموا عليهما يضربونهما ضرباً مبرحاً .. الخدر يتملكهما .. جفونهما ثقيلة كثملين . لسانهما أثقل من أن يتحركا بكلمات .. ملت عيونهما لون البساط على الأرض وخطوطه فعادت تلاقى فى توسل ..

شرخت الصمت بقولتها .. « لم أخن زوجى من قبل . صدقنى» .. مد يده يمررها على سائر وجهها .. تغمض كقطة بيت مستأنسة وهو يحادثها : « أحبك يا سناء .. لم يحدث أن خنت

زوجتى أنا أيضاً رغم ما زعانيه فى حياتى معها .. إبنة خالى كما تعملين وإغضابها يهدد وحدة العائلة .. معاناتى يصعب ترجمتها لكلام .. جميعهم لا يرون فيها عيباً !! .. منذ سنين وكلما زرتمونا أنت وزوجك أو زرناكما بقيت فى مخيلتى أنسب زوجة وحبيبة لرجل مثلى .. كأنك ارتسمت فى جفنى .. حتى أنفى يستطيع فى وحدتى أن يستلهم رائحة عطرك !! ..

ضحكت قائلة : ، وصلنى من عزت خطاب اليوم يزفُ إلىّ نبأ عودته بعد أسبوعين .. وواصلت تضحك بينما أقل وجهه واغتمت نفسه لنبأ عودة زوجها القريبة .. أطل فى ساعة يده .. هم واقفاً .. سارت تحت إبطه توصله .. عند مدخل الشقة أنامت سدها فى كفه .. قرب يدها من فمه وقبلها ثم طبع قبلة فوق جبهتها المستديرة و .. فتح الباب وإنصرف ..

إسغيبت كريمة زوجها .. تشعر بإنقباض قلبها منذ صحت فى الصباح أثر حلم رذل ارتأت فيه زوجها وقد دهمه قطار !! .. طيلة النهار تتحين عودته ودلالات الحلم تحيرها وتعذبها .. أيحدث شئ يفقدها زوجها ؟ .. ياه .. ما أوحش الحياة بدونه .. ، حسن ، طيب عطوف . صبور . مخلص .. تنظر فى صورته الكبيرة المثبتة على الحائط .. كأنها لم تكن تراه رؤية صريحة من قبل !! .. ترفع يدها للسماء داعية أن يعود سالماً لتحتويه فى صدرها بشوق عمر ..

أطلت من شرفتها تمسح بنظرها الطريق من بدايته حتى مدخل البيت .. رصدته من بعيد .. دخلت تختطف نظرة فى

مرآتها وعادت مسرعة تطل من الشرفة .. يكبر فى عينيها كلما إقترب حتى صار عند مدخل البيت كما العملاق !! .. فتحت الباب قبل أن يصنع فيه مفتاحه . وجدها تطوقه بذراعيها وتضع رأسها فوق صدره .. ضمها مجاملة بمظنة أن حدثاً مفجعاً قد وقع فى محيط العائلة !! .. تحين أن تنطق بشئ .. تحسس وجهها بيده فابتلت بدموع تسيلها عيناها .. رفع وجهها بيده من تحت ذقنها بلطف ينظر فيه بقلق .. ماذا جرى ؟! .. قالت وهى تعود إلى دس رأسها فى صدره : س أوحشتنى . طيلة النهار وأنا قلقة عليك ، .. قال فى شبه إنفعال : ، ومن ماذا هذا القلق الجديد ؟! .. ولماذا اليوم تحديداً ؟! ، . و .. مشى فى إتجاه غرفته بينما إستحبت هى أن تدخل تحت إبطه وتحوط خصره بسراها وهى تقول : ، حلم .. لقد حلمت اليوم حلماً أخافنى عليك يا حبيبى ، .. وراحت تسرد عليه تفصيلات حلمها وهو يبدل ملابسه ثم يرتمى فوق سريره ويتدثر بالغطاء حى إذا إنتهت من قصة حلمها وجدت عينيه تتارجحان بين اليقظة والنوم .. أسرعت تستلقى بجواره وتتدثر بنفس غطائه تطوقه بساق وذراع وهى تبتلع أنفاسه كأنها نسائم ربيع غاب طويلاً !! ..

بعد يومين عاد لسناء بلا سبب غير الإشتياق إليها ! .. بحق المحب على محبوبته يعلنها فى مواجهتها صراحة .. إشتقت إليك

للمسة يدك .. لعبير أنفاسك . لضمة صدرك الحنون .. و .. بنفس الحق تصف له ما آل إليه حالها بعد ما باح كلاهما للآخر بحبه .. معها فى يقظتها ومنامها إن هى نامت تحين طرقة يده على بابها لتملى عينيها منه وتنفض وحشة غيابه .. تتمنى لو تضمهما حياة صريحة نقية من إثم الخيانة .. إنها ما عادت تطيق حياتها بدونه .. و .. إستيقظ طفلها .. عادت تضمه فى صدرها .. بعد قليل نزل من حجرها ليبدأ دورانه حول حسن ومداعبته .. ييأس من تجاوبه فيتحول إلى أمه يشاكسها بمرح طفولى .. يضيق حسن بقظة الطفل وتستمسخ روحه مداعباته .. ينهض مودعاً .. عند الباب تستحلفه أن يعود فى الغد .. يواعدها على نفس ساعة حضوره اليوم .. و .. يمضى وهو يسائل نفسه .. ترى هل تفهمت سناء أن تحديد ساعة بذاتها يعنى تهيئة مناخ مناسب ؟! ..

و .. صارت كريمة تحرص على توديع زوجها عند خروجه فى الصباح وإنتظار عودته .. تختلق موضوعات لحوارات تجذبه تتفانى فى إستنهاض عواطفه الخاملة تجاهها .. تناوشه . تشاكسه . تسائله عن أسباب توهانه وإغتمامه أغلب الوقت .. بعض مرات وأمام إلحاحها بكى بين يديها ! .. فسرت كريمة ذلك بأنه نوع من الإكتئاب تسببه رتابة الحياة .. بينما لا يعرف هو إن كان بكاؤه من شدة وجده وولهه بسناء أم من خنقة ذنبه لضميره ؟! .. يتعجب

من أن يبكى تباريح عشقه بين يدى زوجته . لكن جانباً من نفسه يكابر .. هى كريمة السبب ؟! .. طالما توسل عواطفها ولم تطاوعه أهملته حتى داسه قطار العشق .. هى التى ألقت به تحت عجلاته يمزقه ويعذبه واليوم تحاول أن تضم أشلاءه إلى بعضها لتحتضنه كياناً حاضراً ؟! .. هو نفسه لم يعد قادراً أن يستعيد نفسه !! .. يحب سناء بكل كيانه ..

يفكر فى إستخلاصها من أسر زوجها الذى لا تحبه ليتزوجها هو!! ..

عاد « عزت » . فى اليوم المحدد .. كان « حسن » فى إنتظاره بالمطار مازال « عزت » لا يعرف فى « حسن » غير صديق عمره .. أوصله لبيته .. ما أن فتحت سناء الباب حتى ضمت زوجها فى إشتياق بالغ وراحت تمطره بالقبلات . الغصة وراء الأخرى تصدر نفسها فى حلق حسن الذى أغفل الزوجان وجوده معهما !! .. لم يطق البقاء .. إنسلخ مودعاً بوعد أن يعود .. بعد يومين .. عرج إلى بيت صديقه .. وجد سناء وحدها .. خرج عزت ليسلم أمانات تخص أهل زملاء الغربة .. دعته لينتظره .. لم تبد مظاهر إشتياقها إليه .. لما شرع يقبلها تثلجت وزمت شفتيها ! .

تململ .. طأطأت رأسها .. إستدار مودعاً .. بقيت مكانها لم تصحبه حتى مدخل الشقة .. عاد إلى بيته وكأن حملاً ثقيلاً قد

سقط عن كاهله .. يتلقيزوجته فى صدره .. يضمها بإشتياق .. يمرر يده بإعجاب فى شعرها المصفر .. تحتضن عيناه عينيها الخضراوين .. يروقه عبير أنفاسها .. يعاد ضمها بقوة ذراعية .. تهمس فى أذنه : مهلاً حبيبى .. أشك فى أن أكون حاملاً .. تسرى الفرحة فى كيانه .. يضع رأسها الجميل بين كفيه ويمطر وجها بالقبلات .. و .. خليط من مشاعر الندم والفرحة والحب تسيل الدموع غزيرة من عينيه .

* * *

■ ١٢ ■

ليلة شتوية

، ها هى دقات خفيضة لهفى فوق بابه ! ..
اللص لن يدق الباب ! .. تسلل من فراشه
متجهاً نحو مدخل الغرفة .. من فلجة فى
الباب المعيوب حاول أن يعاين الطارق ..
ظلام الممر لم ينكر كون الطارق إمرأة .. إمرأة
أما كيف شكلها وما لون ردائها فلا يعرف ..
قال : من الباب ؟ .. قالت : أنا . إفتح .
أرجوك . فى عرضك . إنى خائفة .. فتح
الباب بسرعة . إنسلت من تحت ساعده ودارت
حوله لتدفع الباب بجسدها ... إنغلق الباب ..
هه .. إيه ده ؟! . أنت مين ؟! .. دهشاً يسأل
فتأتيه ، هسس ، مستجيرة ! . .. يتراجع لتبقى
وحدها تحت ضوء الحجرة الخافت .. كأنها
البركان تفجر فى حجرته وراح يقذف بحممه
فوق جسده ! ألجمته هيئتها .. المرأة فاقت نساء
مجلاته البيروتية عرياً ! . رداء نوم لا يزيد !
.. مازال يرجف فى مكانه وهو يعانيها ..

بدت فى عينيه كريفية بندرية فى ليلة عرسها
.. بضة عفية لم تمسها يد بعد .. لكن عينيها
تسبحان فى هوان وتشعان ذلاً وإنكساراً !! .

***

بعد الغروب يسود الهدوء وتتوقف الحركة الدؤوب .. فالناس هنا غرباء عن المكان .. مازالوا يتالفون ونهاره بنفس الجهد الذى يحاولون أن يتآلفون فيما بينهم .. خليط من الطباع والعادات التقاليد المتباينة .. يختلفون .. يتعاركون .. لكن عاملا مشتركا بينهم هو الضيق بقلة الحيلة وأن يوما سيأتى لتخرج بهم أقدميتهم فى الإيواء إلى وحدات سكنية نظيفة تكون مستقراً نهائياً لهم .. فى ضوء الحجرة الخافت استلقى سعيد عبد الصبور فوق سريره النقالى يلتحف بطانية قديمة .. يقلب صفحات مجلة بيروتية قديمة اشتراها فى طريق عودته .. والراديو الترانزستور المتهالك بجواره يصدر حشرجة أصوات .. لحظة . شعر بمنتهى الضيق .. كان بصدد صفحة لامعة كالزجاج تتوسط المجلة .. شهر أصبعه السبابة كالسيف .. وضع كل قوته الغضوب فى أصبعه ووجه طعنة نافذة لمنتصف الصفحة .. عاد بأصبعه منتصباً فى عصبية .. وقع عليه نظره .. ارتخى الأصبع .. راح يضحك من نفسه قام متثاقلاً كالمستسلم لفكرة .. يعد كوب شاى .. أمام الموقد الصغير راح يحاور الفكرة .. نعم .. ضرورى اتقدم بشكوى للمحافظ .. لا ..

التماس .. أقول مثلاً : أنا سعيد عبد الصبور الموظف بالقوى العاملة على الدرجة الثالثة المكتبية .. أقيم بمساكن الإيواء منذ صدر قرار بإزالة العقار الذى كنت أشغل شقة به .. أعول خمسة من البنين غير أمهم .. غاب علينا اهتمامكم ومعاناتنا لا يكفيها مجلد ضخم يحرر بخط منمنم .. حتى الأمل أخذ فى الخفوت منذ وجهت المحافظة جل اهتمامها لتمليك أصحاب المقدمات .. و .. لكن .. ما قيمة أن اشكو وألتمس .. سيطالع ألتماسى موظف مثلى .. قد لا يملك غير رد مثل ردى على إلحاح وألتماسات المتخرجين الشبان ، ، نعم مضى على تخرجكم أكثر من سبع سنوات . لكن ربما أتتكم الفرصة مع الانتخابات القادمة ، ادعو الله أن يحل مجلس ليعاد انتخابه وتخرجون من معمعة الانتخابات بفائدة .. يسمع نباح كلاب المدافن القريبة .. يفور الشاى فى الإناء يوبخ نفسه .. ، خايب ، نعم .

خايب إذ كيف تسهو عن غليان ينتج فورانا وكل شئ حولك فوران من غليان ؟! .. لو استبحت لنفسك عذرا فى ذلك استبح للآخرين أيضًا عذراً .. أولئك الذين يسهون على غليانك أنت وغيرك !! .. عاد يفسح لنفسه مكانا عند طرف سريره النقالى ، رشفة من كوب الشاى وسبحة استسلم لها .. آخر صدمات الهمس بينه وبين زوجته كانت ترجوه ألا يرفع صوته .. تقول له ، إن الذى تطلبه مستحيل .. كأنك تطلب منى أن اتحول إلى داعرة أو عاشقة تسرق للنزوة لحظة ! .. انظر .. أولادك وبناتك وأخى

وزجته وأمى التى استضافتنا جميعاً .. و .. رغم أنه يعرفها خجول محترمة احس بالهوان من طول رفضها .. أقسم ألا ينام فى بيت أمها .. فالفراق أهون من عذاب القرب ! ..

راجعته .. أصر وانطلق ليستوطن غرفة الإيواء .. كأنه يضحك من نفسه الآن .. يضحك .. ويضحك بسخرية وتعلو ضحكته وتزداد من السخرية مرارة حينما تقع عيناه على المجلات البيروتية بجواره على السرير .. لكنه يصب بقية كوب الشاى جملة فى جوفه .. ويطفئ سيجارته ، يفرغ يديه ليلملم المجلات ليعاود تصفحها من جديد ونصف جسده ممدد تحت البطانية ! .. صور نجمات السينما وملكات الإغراء حتى الاجتماعيات وصور حفلات الزفاف .. كأنهن يكدن له بأكتافهن المكشوفة وسيقانهن .. وكأنه يمعن فى استقبال مكيدتهن بأن يذوب عنهن قولاً : يا راجل يا عجوز يا مراهق ..

ها نحن الجميلات لا ينوبك منا غير تصويرة على ورق .. عالمنا كبير واسع ملئ بالهمس واللمس والقبلات والعطور ، وعالمك ركن قذر فى غرفة إيواء .. حقيقة أنت إنسان مثلنا لكن حظك .. أين ولدت وأين تعيش ؟! ... ومازالت كلاب المدافن القريبة تعوى وتنبح .. وجلبة طرأت لتوها كأنها تظاهرة نبش حيوان فى الممر يقترب من مدخل حجرته .. انصت .. لص ؟! .. وأى لص أفقر من فقراء المكان ؟! .. إن جميع جيرانه رأوه يوم وفد لحجرته كل

أثاثه محض سرير ومنضدة صغيرة .. ويرونه يوميا وهو يعود وحيداً فارغ اليدين .. لكن ، ها هى دقات خفيضة لهفى فوق بابه ! اللص لن يدق الباب ! .. تسلل من فراشه متجهاً نحو مدخل الغرفة .. من فلجة فى الباب المعيوب حاول أن يعاين الطارق .. ظلام الممر لم ينكر أن الطارق امرأة .. امرأة أما كيف شكلها وما لون رداءها فلا يعرف .. قال : من بالباب ؟ ..

قالت : أنا . افتح ارجوك ، فى عرضك إنى خائفة .

فتح الباب .. بسرعة انسلت من تحت ساعده ودارت حوله لتدفع الباب بجسدها .. انغلق الباب .

« هه . أيه ده ؟! أنت مين ؟!دهشاً يسأل فتاته .

« هس » مستجيرة !

يتراجع لتبقى وحدها تحت ضوء الحجرة الخافت مباشرة .. كأنها البركان تفجر فى حجرته وراح يقذف بحممه فوق جسده !

الجمته هيئتها ... المرأة فاقت نساء مجلاته البيروتية عرياً ! .. رداء نوم لا يزيد ! مازال يرجف فى مكانه وهو يعاينها متذرعا بدعوتها للصمت « هس » من فيها الذى يتقاطع سبابتها مع شفتيه المكتنزتين المصفرتين صفرة الخوف الضارية فى وجهها ناصع البياض ! ... بدت فى عينيه كريفية بندرية فى ليلة عرسها .. بضة عفية لم تمسسها يد بعد ! .. لكن عينيها تسبحان فى هوان وتشعان ذلاً وانكساراً .. لكأنها تصد بصمتها عاراً أثقل من جبل ! .

من جديد يسائلها : من أنت ؟ ماذا تريدين ؟ ..

تجيبه وكأنها تحفر منيماً لأصبعها المتقاطع فوق شفتيها .. « هس ».

ويقـتـرب وقع الأقـدام ... أقـدام نفـر التظاهرة .. : لعلهم يقصدونك أنت ؟ تجيبه همساً :

« نعم ... هس » ..

يدرك أن الصمت الآن يلزمه كما يلزمها ! .. عند باب حجرة جاره يتوقفون .. يدفعون الباب بقوة .. ينكسر الباب .. يعلوا صوت جاره على أصواتهم « اقسم بشرفى ما كانت عندى أى امرأة الآن أنا رجل فى حالى يا ناس .. قد يكونون عاينوا حجرته .. فى الممر وقفوا جميعا كأنهم يتخيرون وجهة البحث ... مازال الجار بينهم يؤكد براءته من التهمة .. فتح سعيد باب حجرته .. اقترب منهم وهو يفرك عينيه ويمسح على وجهه بأحد كفيه كأنه استيقظ لتوه من جلبتهم التى يجهل السبب وراءها : « خير يا جماعة ؟ فيه أيه ؟ حد جرى له حاجة والعياذ بالله ؟!

أجابه أكثرهم تحفزاً واهتماما قبل أن يعطيه ظهره منصرفا والجميع وراءه : لا ياعم ... مافيش حاجة .. ادخل نام .

عاد سعيد للإنفراد بالمرأة .. مازالا يلوذان بصمتهما حتى تلاشت الأصوات ووقع الأقدام بالمرة .. تمالك سعيد نفسه اتجه ناحية المنضدة .. صب الماء فى الأنية واشعل الموقد تحتها .. كلما

التفت ناحية المرأة وجدها تسحب جزءاً من البطانية فوق جسدها وهى جالسة فوق طرف من السرير حتى تدثرت بها تماما .. مرة أخرى يفور الشاى على الأنية ، رجل خايب ، هكذا نطقها بصوت مسموع وهو يصب الشاى فى كوبين ... التفت ناحيتها ليرى وقع كلمته عليها فوجدها تلطم صدغيها بكفيها وتبكى وهى تهزى بكلام كالمحمومة !

ارتبك واختلطت تمنيات شيطانه السعيد بحزنها الآسف المثير هرول ناحيتها بخاطر متململ من مرحلة استجدت فرضت نفسها على أى مدخل له إليها .. قبض على معصميها بيديه ليمنع كفيها عن وجهها ، التقت عيونهما من قرب .. مازال مثارا يستحلفها أن توقف نشيجها .. لا يعرف أن كان من غريزته أو إنسانيته ضم رأسها على صدره وهو يربت فوق كتفيها بيده ؟! شعر كأنها تمانع فى ذلك .. اصر على ضم رأسها فى صدره .. توقفت عن البكاء ، كأنها تبطل حجته فى ضم رأسها ! .. ترفع على كتفها ما انسحب من البطانية .. تطمئن إلى أنها سترت كل جسدها ! .. تأكد أنها تلفلفه ، انبعث حقد عليها فى صدره .. كاد ينطقها يا لك من امرأة منذ قليل تواضعت للغريب هناك !! أى فرق بينه وبينى !؟! لكن شيطانه حدثه بأن الأمر يحتاج أن يبدو أمامها واعيا بكل ما دار ، وإلا حسبت فيه السفه والبله فتضيع عليه فرصة مواتيه !! نهض من قبالتها ، راح يقطع الغرفة جيئة وذهبا ، ثم بادرها :

- إذن فالرجل البدين أشيب الرأس الذى تبعه الجمع إلى هنا هو زوجك ؟

- نعم .. هو زوجى .. سمعته يقول لك ادخل نام .

- لابد وأن أحدهم أرشده إلى وجودك لدى جارنا ... اعتقد أنه واحد ينافسه فيك !

- جائز ... فكثيرون هنا تفرغوا لملاحقة النساء ...

- وأنت ؟

- أنا .. ماذا ؟

- كم مرة وقعت فى حبائلهم ؟

- عادت تلطم صدغيها بكفيها وتنحب وهى تقسم على صدقها .. اقسم بالله أن أحداً منهم لم يمسسنى حتى الآن .. ما أنا إلا امرأة منكوبة .. انهم يعرفون كل شئ عن أى امرأة .. من زوجها ؟ متى يعود ؟ عدد أفراد اسرته الذين تضمهم حجرة الإيواء .. زوجى يخرج فى الصباح ويعود فى الليل ... لدينا أربعة أبناء ومعنا أم زوجى ... حديث النساء هنا يسرب إلى داخلك الإحساس بأن كل شئ أصبح مباحا فى هذا المكان .. صمدت طويلاً ... ظل الرجل الشيطان يلاحقنى ، ضعفت لا أعرف كيف ؟! كنت من قبل أعيش فى شقة كبيرة ولى حجرة مستقلة وزوجى ، كنت استطيع أن أقف أمام مرآتى الكبيرة أشاهد نفسى واراجعها وأثق فيها .. منذ سنتين لم أر نفسى .. نسيتها .. نسيت ملامح كبريائى فى وجهى ..

نسيت أنى امرأة وذكرنى الرجل الشيطان .. تذكرت المرأة فى نفسى ... لكنها امرأة أجهل ملامحها وتفصيلاتها .. امرأة ليست تحت سيطرتى اطاعته رغما عنى ! .

تجاوبت مع الموعد .. حضرت إليه .. كأنى امرأتين فى جسد واحد .. أحدهما جريئة متهافته ، والأخرى متخوفة تقتلها اللحظات خوفا .. ما أن انفردنا بحجرته تملكنى الخوف .. كل الخوف .. تمنيت لو تنشق الأرض وتبتلعنى أو تقوم القيامة الآن ... سمعت همهمات من بعيد ، شئ حدثنى بأنهم يقصدوننى وحتما سيحضرون ، قلت له أن زوجى بينهم وسيحضرون ، قال لا .. مستحيل أنهم أناس يتشاجرون ... دفعته بعيدا عنى وخرجت لأدق بابك .. لم ترض لى بالخطيئة .. أنا إنسانة طيبة ... وواصلت البكاء .

مازال يجهل حقيقة الدافع وراء إصراره على ضم رأسها فى صدره .. هل هى الشفقة عليها أم الغريزة ؟! هذه المرة تركت له رأسها يضمه فى صدره .. احس زفيرها .. مد يده إلى وجهها يمسح دموعها ثم راح يمررها فوق جيدها ثم كتفها تحت البطانية !

انتفضت .. دفعته عنها بقوة .. استفزه ذلك .. انتصب واقفا قبالتها وعيناه تنطقان بما انتواه .. كأنها سمعتهما تنطقان : « طائلك .. طائلك لا محال » .. خرت ساجدة عند قدميه تقبلهما وهى تستحلفه : بالله عليك ترحمنى .. مازال هناك عذاب كثير

ينتظرنى .. لا أعرف بعد مصيرى ، غاية ما أتمنى الآن أن استطيع فى مواجهة زوجى أن أقسم بالله صادقة أننى لم أقع فى الخطيئة ولم أخنه ، لا يهمنى أن يصدق قدر ما يهمنى أن أكون أنا صادقة فى قسمى أرجوك اترك لى هذا الأمل الوحيد ...

مد يده يستنهضها من على الأرض .. قدم لها جلبابا صوفيًا قديما يخصه ، توارى فى ركن ليرتدى ملابس الخروج ، عاد يحدثها :

- أوشكنا الآن على الفجر ، سأخرج وحدى .. بعد الفجر بقليل سأعود آملاً أن تكونى قد انصرفت ...

- حاضر .. هذا جميل منك لن أنساه ....

***

ـ ١٣ ـ

اللمسات الأخيرة

، وذات يوم دعـتـه للقـاء تعـارف بأسـرتـهـا .. تأخــر والدها عن مــوعـد عــودته للبــيت .. تشاغلت الأم عنهـمـا ببـعض شـئـون البـيت ، تشابكت يداهما .. أنفاسهما تلفح وجـهـيهـمـا .. شرعا يستسلمان للعناق .. انبعث بكاء الطفل من مـهـده القـريب .. توقـفـا لبـرهة .. عـادت تفتح ذراعيها للعناق .. نبهها إلى بكاء الطفل المتـصـاعـد .. تـغـافلت عن كل شئ إلا الـعناق الوشيك .. لكن الطفل يبكى ـ هكذا نبهها ثانية ـ وعيناها شبه مغمضتين قالت : دعك منه الآن دفعها بعيداً عنه واستدار منصرفا وهى تتبعه .. عماد .. عماد !! وخرج مسرعا دون أن ينظر وراءه .

***

تعلقت بها عيناه . بينهما نـهر الطريق ، هى على الطور تتحين فرصة للعبور .. وهو داخل الفاترينة الزجاجية التى تحتل واجهة

البوتيك الكبير ، ما زال يراقبها .. امتنع تلاحق السيارات فنزلت عن الطوار وعبرت .. كلما اقتربت ازدادت جمالاً كأنها انخلقت من حلم يقظة جميل لتتجسد فى الواقع على نحو تتضاءل إزاءه جميلات أية أحلام .. و .. مازال فى وضع القرفصاء داخل الفاترينة بينما رأسه يدور فوق كتفيه كآلة حربية تترصد هدفاً ثمينا بمنظار تليسكوبى .. استقرت داخل البوتيك هى وعيناه !! بينه وبينها خطوتان فحسب .. تحول رأسه إلى قلب نبضاته كأنها الزلزلة .. حاول أن يهم واقفا فاصطدم رأسه بزراع المانيكان .. عاد للقرفصاء وقر فى ضميره أنه قد استلفت انتباهها .. يصله بعض تهامسها ومدام « شاهنده » صاحبة البوتيك :

- حسبته المانيكان لولا تحرك !! .

- هاها .. عماد ؟! فنان تشكيلى .. تستعين به بيوت الأزياء ونصف بوتيكات البلد لإعداد فاترينانها مع بدايات الفصول ، ذوقه رفيع .

- وسيم جداً !! .

اشترت شيئا .. بأطراف أصابعها وابتسامة مرحة حيته من وراء زجاج الفاترينة عند المدخل جاوبها بابتسامة وإيماءه برأسه .. من ظهرها يراها تتحين فرصة للعبور ، عبرت .. دلفت فى مدخل العمارة المواجهة .. دقائق ورصد اطلالتها من شرفة الطابق الأول توتر .. بلغه صوت مدام شاهندة « الشاى يا أستاذ عماد » .. خرج

من الفاترينة .. جلس قبالتها .. امرأة ذكية غلفت عبارتها بابتسامة ماكرة .. لطيفة إلهام .. بنات الجامعة الأمريكية ياسيدى .. آراها كطفلة جميلة لا تكبر .. اعجبت بك أظنها لن تتخلى عن شرفتها !! ارتبك .. تماسك .. كأنها قالت له خلبتك إلهام الجميلة فأحالتك لنبض مضطرب ! لم يجد بد من تعليق يبديه طبيعيا .. آه .. لطيفة .. وسرعان ما انتقل بالحديث إلى ناحية أخرى .

- لن يتبقى لى غير عمل يوم واحد .. اللمسات الأخيرة .

- نعم يا عزيزى .. وعلى طول تنتقل لفاترينات محلنا فى مصر الجديدة .

- لا .. أرجوك يا مدام شاهنده .. امهلينى مدة أسبوع انهى فيه ارتباطاتى مع عملائى بهذه المنطقة ، بعضهم بجوارك مباشرة ويترقبون أن افرغ من فاترينتك هذه ، فاترينات محلكم فى مصر الجديدة كبيرة وستغيبنى عنهم بحد يجعلنى أفقدهم .

- يا عماد أنت مننا وعلينا .. لنا الأولوية وخصوصا لو قلت لك علشان خاطرى .. لكن .. أنا مقدرة شهامتك وحرصك على زباينك .

- إذن اتفقنا .

- اتفقنا .. بشرط .. أسبوع واحد فقط .

انصرف وكأنه لتوه استعاد نفسه ! لم يكن هناك ثمة سبب حقيقى لتغيير برنامج عمله .. إن اتفاقه المسبق مع زبائنه أن يفرغ

أولا من محلات مدام شاهنده هنا وفى مصر الجديدة !! .. قبل يومين .. قبل ظهور إلهام كان يبذل ما فى وسعه لينتقل إلى فاترينة مصر الجديدةويحظى بساعات قرب « نيرة » الجميلة المثقفة ابنة شاهندة والتى تدير المحل هناك !! آه .. إطلالة واحدة فى وجه إلهام ابدلت كل شئ .. ترتيب برنامج عمله .. زبائنه .. مطاوعته لشاهنده وبتأثير لم يفكر يوما فى كنهه .. « نيرة » وما كان قد استقر عليه بشأنها .. انسب شريكة حياة لفنان .. كل هذا وراء ظهره الآن فى مقابل توسل إطلالة أخرى فى وجه إلهام التى لا يكاد يعلم عنها شيئاً ؟!! .

من هذه الفاترينة يرى شرفتها ومدخل بيتها يميل قليلا .. ها هى عائدة .. ربما من جامعتها .. استحال نبض قلبه إلى زلزلة .. دلفت فى مدخل العمارة .. تعلقت روحه بشرفتها .. لا أحد .. لا شئ .. سوى حلم يقظة ، أصابعه تتشابك وأصابعها ، الطريق ممتد وليس سواهما أحد .. يتهامسان .. يتناجيان .. يتواجهان .. عيناها رائعتان .. فمها .. أنفها .. جبهتها .. شعر رأسها .. ياه .. استبد به الشوق إليها وهى معه .. نطقها بحرارة مشاعره « تتزوجيننى » ؟

استنار وجهها الملائكى بشراً وهى تجاوبه « اتزوجك يا عمرى » وتترى صور الحلم فيجدها تتأبط ذراعه خطوات قليلة لانفراد العروسين المتوحدين حبا !! . وتقع عيناه الحالمتان على الشرفة فيراها تسطع متوسطة افريزها كما الشمس فى كبد السماء ..

ينصـرف حلم اليـقظة .. تتـملك كـيانه الزلزلة إياها !! من داخل الفاترينة يتابع حركة رأسها مستهدفا عينيها .. ايقن أنها لم ترصده فى مكانه .. خرج من الفاترينة .. ترجل ناحية بوتيك شاهندة .. تذكر أنها الوحيدة التى يجب ألا تراه والزلزلة تملكت كيانه .. عاد أدراجه ، دخل فى الفاترينة لناحية الشرفة جعل وجهه اصطدمت عيناه بعينى الهـام .. ايقن أنهـا رصدته .. ارتبك ! أيلوح بيده ؟! يدعوها ؟! .. أم ؟! .. أم ؟! .. دخلت .. انتظر كثيرا أن تطـل من الشرفة أو تحضر إلى البوتيك ! النهار يمضى سريعا ولا شئ ...

يوم وراء يوم وليس سوى أن يدلها إلى مكان عمله أو تستكشفه هى فى أى فتريـنات الشارع يعمل .. ولا شئ حـتى كـان آخر يوم عمل له قبل الانتقال لبوتيك مصر الجديدة .. بعد أن استكشفت مكانه من الشرفة حضرت إلى البوتيك .. وقفت قبالة الفاترينة قبل أن تدخل .. تباسما .. تعانقت عيونهما .. دخلت .. خـرج هو من الفاترينة .. تقاربا .. قال لها : سأرسمك من خيالى أن رفضت أن ارسمك فى حضورك .. قالت : اتستطيع ذلك ؟! .. انشغل البائع عنهما بإحضار مطلوباتها . تواعدا على لقاء ...

رسمها فى غيابها إذ لم تحضر فى الموعد ، كما لم يحدث أن رآها بعد ذلك بالرغم من جعله المرور بشارعهـا واجبـا يوميـا .. اختـفت .. تلاشت كـحلم .. شـتاء وصيف مـضيا وعاد الشـتاء .. تبدلت بعض الأشيـاء .. خطبت نيرة لشـاب طيب ثرى .. يومـها

أحس أنه فقد واقعا جميلا مقابل حلم معذب ! مع ذلك شارك شاهندة وابنتها فرحتهما كواحد من العائلة .. اشتدت أواصر الصداقة بينه وبين شاهندة .. طالما أفضت إليه بأسفها عن حياة الوحدة التى تنتظرها بعد زواج ابنتها .. الولد يصر على أن يعيش فى بيت مستقل !!

وذات يوم قالتها لعماد فى تباسط مرح .. أيها المغفل ألم تكن تستطيع غزو قلب ابنتى فأزوجها لك ونعيش ثلاثتنا فى بيت واحد كم كنت أتمناك لها .. لكنك مغفل بمعنى الكلمة .. و .. بعد أن توقفا عن ضحكهما وقع نظره على دموعها تنسال فوق وجنتيها .. تفاقم احساسه بالفقد .. عروس جميلة طيبة هى نيرة ، وأم حنون تعوضه يتم عمره هى شاهندة .. ارتبك .. تمنى لو يرتمى فوق صدرها يعانقها ويقبلها فى سائر وجهها ويقسم لها ألا يبقيها وحيدة !!

لكن .. لم يحدث أن لامسها فى غير مصافحة اليد لليد !! .. وجد يده تربت فى حنو فوق كتفها بينما انطلقت الأخرى تنتزع منديله من جيبه لتجفف دموعها !! وشئ ما يستنطقه لا . لن أدعك وحيدة أبداً .. لحظتها شدت على يديه بكلتا يديها ورفعت رأسها لتلتقى عيونهما فى سبحة اختلطت فيها مشاعرهما كما الذوبان فى عالم سحرى ، لا محددات فيه ولا شئ فيه يستحيل

على التحول لشئ آخر !! .. و .. تسلل صوتها وكأن عينيها هما اللتان تنطلقان :

- لكن .. بيننا خمسة عشر سنة تقريباً .

- ولو .. نقاط الإلتقاء بيننا كثيرة .. أحبك .. كلانا يحتاج الآخر يحتاجه كيانا محبا .. وعطوفا .

- إذن .. لننتظر حتى تتزوج نيرة .

- اتفقنا .

ومن فاترينة شاهندة رمقها تطل من الشرفة .. الهام ؟! توتر .. تملكته الزلزلة إياها .. شاهندة الوحيدة التى يجب ألا تلحظه وهو على هذه الحالة !! احس أنه بخفقان قلبه لإلهام يرتكب جرما فى حق شاهندة ، ما تملك إرادته .. زعم أنه بحاجة لشئ من الخارج خرج .. من بعيد لوح بيده لإلهام داعيا .. هرولت تلقاه .. تشابكت يداهما !! ..

- أين أنت ؟! .. رسمت صورتك من خيالى .

- يكفيك منى الصورة ويكفينى أن أراك طيباً ..

- أيه ؟! لنتزوج ..

- لا أخفى عليك أنى أحببتك بحق .. لكننى .. لا أصلح لك زوجة .

- كيف ؟! .

- أم لطفل أنا .

... وراحت تفض دهشته من موقفها .. يوم التقيتك أول مرة كنت قد حملت من زواجى بزميلى فى الجامعة .. زواج حقيقى على أن يظل كل منا ببيت أسرته لحين نتخرج ونعمل .. حملت رغما عنى وعن مانع الحمل .. افتضح أمرنا لدى أسرتينا .. أصر والدى على سفرى للعزبة لأضع طفلى هناك .. و ... انتهى زواجنا بالطلاق .

و ... افترقا على أن يلتقيا بموعد .. وتواصلت اللقاءات بينهما فى حين امتنع عن زيارة شاهندة ! .. وذات يوم دعته للقاء تعارف بأسرتها .. تأخر والدها عن موعد عودته للبيت .. تشاغلت الأم عنهما ببعض شئون البيت ، تشابكت يداهما .. أنفاسهما تلفح وجهيهما .. شرعا يستسلمان للعناق .. انبعث بكاء الطفل من مهده القريب .. توقفا لبرهة .. عادت تفتح ذراعيها للعناق .. نبهها إلى بكاء الطفل المتصاعد .. تغافلت عن كل شئ إلا العناق الوشيك .. لكن الطفل يبكى - هكذا نبهها ثانية - وعيناها شبه مغمضتين قالت : دعك منه الآن .. دفعها بعيداً عنه واستدار منصرفا وهى تتبعه .. عماد .. عماد !! وخرج مسرعا دون أن ينظر وراءه .

فى طريقه إلى بيت شاهندة تتداعى مشاهد سكنت ذاكرته .. طفل صغير هو .. يتكتم غيرته على أمه من زوجها .. كلما عاد الرجل من عمله ترك عماد لهوه مع أترابه ليلتصق بأمه .. طالما

احس أنهما يتغلبان على التصاقه بها بحيل عديدة ماكرة .. يوما توهم أن الأمومة قد تجعل الغلبة له مرة .. يعرف إلى أين ينتهى بهما تماكرهما .. سبقهما متسللا فى غفلة منهما إلى غرفة نومها انبطح تحت السرير .. استحال لآذان تسترق السمع تعاندها دقات قلبه المتفاقمة تخوفا من أن يخذله سلاح الأمومة .. احسهما استطيبا الهدوء ..

انسحبت أمه إلى غرفة النوم .. وقفت أمام مرآتها تلون وجهها وتبدل ثوبها .. صارت دقات قلبه كطنين يتزاحم فى أذنيه ويكاد يصمه .. تمددت فوق السرير فى تناعم كبطلات السينما وتنهيداتها تكاد تشق الجدران وتشقه .. أحدى ساقيها عارية تتدلى أمام عينيه أقبل الزوج يترنم بشئ من شفتين نشوانتين .. جوع عينيه يلتهم دنيا بأسرها !! .. ارتمى فوق السرير .. ضحك .. همس .. أردية تلقى على الأرض بجواره .. ميز صوت الرجل صريحا يسأل ، الولد راح فين ؟ ، وصوت أمه حاسما .. بيلعب على السلم .. هاهاها ... اهتزازات .. كل شئ يهتز .. وصهد ينفثه السرير فوق رأسه ، يتصبب عرقاً .. ينهار .. يبكى بحرقة بينما يتشبث بالأرض ووجهه بين ساعديه ... بالكاد أخرجاه .. من يومها ترك أمه لزوجها .. ما عاد يلتصق بها .. نسيها وهى أمامه كل يوم فى البيت !! .

استقبلته شاهندة ونيرة ببشر وحفاوة .. بعد قليل انسحبت نيرة

بلباقة .. تتفهم نيرة موقفنا ، بل وتلح فى أن نعجل بزواجنا .. هكذا قالت شاهندة بينما تلقف عماد تصريحها مؤكداً أنه ما جاء إلا لنفس الغرض ...

- ماذا ننتظر ؟! .

- انتظر أن تنتقل ابنتى إلى بيتها من غير أن تشعر للحظة واحدة أن أحداً شاركها فى أمها .

ابتسم عماد فى رضا وهو يهامس شاهندة ، كم أنت أم عظيمة ... سأنتظر إلى ما شئت يا ... حبيبتى ، .

***

- ١٤ -

زوجة رجل مصدوم

، احتوته .. طوعت إرادته لإرادتها .. هى من أولئك اللائى يعمدن إلى توفير مفهوم لدى الرجل بأن نقصاً ما يشوب شخصيته ويصعب عليه تعويضه غير أنها قد قبلته على عيبه ! .. إن الرجل .. أى رجل ، طالما استحوذت عليه مثل هذه القناعة اهتزت ثقته ، وخفت حميته على المرأة المتفهمة لعيبه أو نقصه ، المتسترة عليه ومن ثم أسلم إرادته أو بعضها !! ..

فبعضهن وهى من ذلك البعض يعتبرن تفانيه فى إسعادهن أداءً طبيعيًا واجبًا نحو ملكة متوجة بجاذبيتها وتحكمها فى مسارات الغريزة الحسية عند الرجل !! .

***

مؤكد أن كثيراً من الذى يحدث بين أناس فى مكان ما ينتقل ليعيد نفسه بتفصيلاته على ساحة أناس آخرين هنا أو هناك أو على نفس الساحة فى زمن آخر .. لا أعتقد أن كل إنسان على وجه هذه

الأرض تختصه وقائع بذاتها وكأنها بصمة لا تتكرر عند غيره .. و أكاد أتصور أن لكل حدث سيناريو ملزماً تلقى نسخ كثيرة منه بتصريف قدرى على مواقع عديدة من الدنيا فيتلقاها المقدور عليهم ويضطلع كل منهم بدوره فيها .. تماما كما نصنع أكثر من نسخة لفيلم واحد وكل نسخة يؤدى الأدوار فيها أبطال مختلفون !! . وأحياناً يتكرر الحدث ببعض أبطاله دون الآخرين على نحو ما يحدث فى المسرح عندما يعتذر ممثل فيقوم بدوره ممثل آخر .. وهو الأمر الذى حدث على ساحتى أنا !! .

دور جديد بالنسبة لى لكنه قديم على مسرح الحياة بل عمره من عمرها .. زوجة لرجل .. ولأن الرجل مطلق فأعتقد أنا قد حللت مكان نجمة مسرح حياته المحدود .. لا بأس .. فالرجل محترم ويشغل وظيفة أيضاً محترمة .. وأنا كنت على مشارف طور العنوسة .. وعلى أية حال كل إنسان يؤدى دوره حسب موهبته وطبيعة خبراته فى الحياة ..

حياة هادئة ناعمة .. بعد فترة قصيرة كنت وسعيد متوافقين تمام التوافق كما لو كانت قصة حب قد جمعتنا قبل سنين .. بكل ذرة فى كيانى أحببته وطوقنى تفانيه فى إسعادى فجعلنى كما لو كنت أعتصر كيانى لأصبه مستصاغاً فى قرار فؤاده وتلافيف عقله !! .. أحسد نفسى دهشة من أن تفوت إمرأة على نفسها فرصة معايشة رجل مثله .. أى إمرأة تلك التى تمردت على جنة حبه ؟!

أهى امرأة مثلى يكفيها ما يكفينى ويشبعها ما يشبعنى ككيان نسوى؟ .. أننى أكاد ألا أفتقد لشئ بالمرة ! .. وسيم . أنيق . طيب لبق . حضارى و .. كيان رجولى .. حقيقة أى إمرأة تلك البلهاء التى تمردت ؟! ..

لم يكن يحدثنى بشئ عن تلك المرأة .. أذكر كلمات مقتضبة قالها عنها فى البداية .. « لم يحدث بيننا وفق بأى حال .. أستعصى التعايش .. طلقتها .. تزوجت هى فور إنقضاء عدتها .. لى طفل منها عمره ثلاثة أعوام زهدت فيه كما زهدتها فلما توسلت أن تظل حاضنته تركته لها .. ليست ثمة صلة غير نفقة الطفل التى تصلها عن طريق أحد أقاربى » !! ..

وبقى إحساسى بغرابة لك المرأة يتعاظم . يتعذر عليها العيش مع رجل كسعيد على ما يجتمع فى شخصه من مزايا تتمناها أى إمرأة فى زوجها .. ثم تتزوج من آخر فور إنقضاء عدتها وكأن الزواج الذى غاب عنى سنين حتى أشرفت على العنوسة كان ينتظر عند بابها ليتلقفها من طلقتها إلى زيجة جديدة ؟! .. و .. لأن رفاهة الحياة والتخمة من السعادة غالباً ما تستدعى سبباً للإنشغال حتى لو كان إنشغالاً فيما لا يفيد فقد حرصت أن أتقصى أخبار تلك المرأة التى لم يعجبها ما إستحوز بالغ إعجابى ولم يكفها ما فاض على كفايتى !! ..

و .. إستطعت بالفعل أن « الملم تفصيلات حياة « زينات » أبان

زواجها من سعيد ، وأدق مفردات واقعة الطلاق .. بل إنى عمدت لأن أراها رأى العين وأفلحت بفضل معونة صديقة من جاراتى .. وإن قلت كنتيجة لهذه المشاهدة إنهالاً تناهزنى جمالاً سواء من حيث ملاحة الوجه ولون البشرة أو القدرات الجسمية وأناقة الملبس فليس وراء ذلك أى دافع من غيره فهذا يتضح ببساطة لأى عين محايدة كما أنه رأى الذين عرفوها وعرفونى .. و .. أصبح بمقدورى الآن أن أتخيل شكل ومسار حياتها مع سعيد وفق ما توافر من معلومات دقيقة : إحتوته .. طوعت إرادته لإرادتها .. هى من أولئك اللاتى يعمدن إلى توفير مفهوم لدى الرجل بأن نقصاً ما يشوب شخصيته ويصعب عليه تعريضه غير أنها قد قبلته على عيبه !.. أن الرجل .. أى رجل . طالما إستحوزت عليه مثل هذه القناعة إهتزت ثقته وخفتت حميته على المرأة المتفهمة لعيبه أو نقصه المتسترة عليه ومن ثم أسلم إرادته أو بعضها !!

.. لم تقابل تفانيه فى إسعادها على نحو ما تقابله إمرأة على شاكلتى .. فبعضهن وهى من ذلك البعض يعتبرنه أداء طبيعياً واجباً نحو ملكة متوجه بجاذبيتها وتحكمها فى مسارات الغريزة الحسية عند الرجل !! .. ما هى إلا فترة قصيرة حتى كان سعيد عجينة طيعة فى يدها قانعاً قناعة مغلوطة بأن زينات هى الأقدر دائماً على تصريف كافة الأمور بدءاً من إختيار ملابسه وإسلوب هندامه وإنتهاء بتحديد الصداقات والعلاقات الإجتماعية !!

والواضح كل الوضوح من مجمل وقائع حكيت لي إنها من اللاتى يملن لتكثير أو تعديد خدام الجاذبية والأنوثة فيهن من الرجال ، ومن ثم قيل عنها أن علاقات مدينة قامت بينها وبين أزواج أغلب صديقاتها ومعارفها ! .. أما أنا فأرى أن ذلك لم يكن يعبر عن غير مرحلة بحث عن عشيق دائم لها .. وذلك ما أكدته تفصيلات مرحلة لاحقة من حياة زواجها بسعيد .. فى هذه المرحلة قلصت كل علاقاتها المتناثرة هنا وهناك لتحصرها فى شخص واحد .. هو شقيق إحدى صديقاتها الذى إلتقته عندها مصادفة .. ضابط شاب فى الجيش . وسيم . أنيق . عنيد .. سرعان ما وطدت علاقتها به ومن ثم راحت تفتح لقبوله عقل وقلب زوجها حتى استقر فيهما وتربع وشاركها سلب وتطويع إرادته ! .. كل المعارف يتحدثون عن علاقة آثمة تربط بين زينات وخالد إلا زوجها سعيد الذى لا يرى فى خالد سوى فارس نبيل يستريح ببث شكاواه ومشكلاته إلى زينات التى تؤهله للزواج من إحدى معارفها أو قريباتها !! .. وما لبث أن أصبح خالد هذا بمثابة العائل أدبياً لكل من سعيد وزينات ..

يحكم إختياراتهما ويعالج مشكلاتهما ويصبان عنده بأدق تفصيلات الحياة بينهما .. لا غضاضة فى حضوره إلى البيت فى غياب سعيد أو خروجه بزينات من عنده لقضاء مشوار أو مهمة ما بل الأدهى من ذلك ما همست به شقيقة خالد ـ لما اختلفت مع زينات ـ لإحدى معارف الطرفين عن هيام زينات بخالد إلى الحد

الذى خوله معاقبتها بالضرب المبرح على ما يبدو منها من أخطاء وكذا إئتمارها بأوامره بتعطيل العلاقة الحسية بينها وبين زوجها !! والواضح من سياق الأحداث أن سعيداً قد إنتابه شك متأخر فى الإثنين أحال حياته فى الفترة الأخيرة من زيجته الاولى إلى جحيم مقيم .. و ..

ربما تصادف ضبطه لهما فى مواقعة حقيقية أو أنه ترصد للقاء يجمعهما منفردين بعد طول مراقبة ليضبطهما الضبط النافى للشك والقاطع بقيام علاقة خيانية .. و .. وكانت ردة الفعل عند سعيد بالغة الكياسة إذ أعفى نفسه عن أى تصرفات إنتقامية لما أخرجها من بيته وحياته بطريقة سلمية .. بالطلاق ..

لقد أزاح إلمامى بتفصيلات زيجة سعيد الأولى الغموض عن بعض مواقف على ساحة حياتنا الزوجية .. فالآن أستطيع أن أفسر زهده فى طفله من زينات .. لم يحدث أن أشتاق لرؤياه . بل وتسامح ببساطة فى أمر حضانتها للطفل .. ألا يكون إنطباعه عن الأم كزوجة خائنة قد شف على الطفل نفسه ؟! .. ألا يصح الاعتقاد فى أن سعيدا يعايش نوعاً من الشك فى أبوته للطفل ؟!

إنها فى الواقع قناعتى الآن .. ثم .. ذلك الغموض الذى إنزاح أيضاً عن تعمده تحجيم أية علاقات تكاد تتطور بيننا وبين أطراف أخرى من عائلتينا . وميله لأن نكون متلازمين فى خروجاتنا أو تواجدنا بين ضيوفنا أو مضيفينا !! .. و .. مع ذلك لم أدع أن

اكشاف الخلفيات وراء هذه المواقف يؤثر بشئ فى إنسجام معيشتنا على النحو الذى بدأنا به .. نعم .. فهكذا كان إسلوب حياتنا من البدء وقد تعودته دون أن أجد فيه أى غضاضة .. فأنا أولاً وأخيراً إمرأة لزوجى الذى شغفنى حباً ولبيتى الذى صار مملكتى المريحة السعيدة .

كانت قد مضت خمسة أعوام تقريباً على زواجنا يوم فوجئنا فى إحدى أمسايتنا بضيوف يزورننا لأول مرة .. صفاء وزوجها .. كانت صفاء زميلة دراسة لشقيقتى التى تصغرنى بعامين وكثيراً ما جمعت اللقاءات ثلاثتنا فترة الدراسة الإعدادية .. فتزوجت صفاء زيجة متواضعة وأقامت بداية فى بيت عائلة زوجها ثم إنتقلت إلى سكن جديد فى نفس الحى الذى نقيم فيه فعادت تنتهز الفرصة لتصل ما انقطع منذ سنين طويلة .. زوجها رجل بسيط يكاد يكون منعدم الثقافة .. شخص يليق بإمرأة لم يجاوز تعليمها المرحلة الإعدادية .. خجول متواضع الهيئة يفوقها عمراً بما يقارب الستة عشر عاماً ..

وقتها كنت على وشك أن أضع إبنتى الثانية .. استمرت صفاء تعودنى فى صباحات الأيام قبل الوضع .. فتقوم عنى بالمهام المنزلية التى تضعف عنها حامل فى نهايات شهرها الأخير .. وكان لتلك الفترة الأثر فى إن نصبح شديدتى التعلق ببعضنا .. فقد كان الإهتمام والجهد اللذين قدمتهما صفاء فترة ما قبل الوضع

وبعده يفوقان ما يمكن أن تضطلع به أخت نحو أختها فى مثل هذه الحالات .. وكان من الطبيعى أن يحمد سعيد زوجى فيها إخلاصها وتفانيها فى خدمتنا ومن ثم يرحب بزيارة هذه الأسرة الصديقة ويصطبر على مجالسة زوجها رغم التباين البعيد بينهما فى جوانب شخصية كثيرة ..

وبدأ فصل جديد فى حياتنا .. أستطيع القول بأننى طوال هذا الفصل وحتى آخره كنت عمياء بلهاء أو مغيبة .. عمياء لأن لا بصرى ولا بصيرتى دلتنى على أن شيئاً ما خصوصياً قد نشأ بين سعيد وصفاء !! .. وبلهاء لأنى فى الواقع كنت أتجاوب مع محاولاتهما لاستنامة عقلى وتغفيلى فأوفر لهما أحسن الفرص للتلاقى بل ربما إعتبرت أن ما بينهما هو نوع من التآخى !! .. ومغيبة لأنى لم أضع يدى على شئ بنفسى وحتى إنتهى الفصل بكامله !! ..

لقد إستطاعت صفاء أن تجعل لنفسها وجوداً محبباً ومؤثراً فى حياتنا لما عمد ت تقدم نفسها زوجة تعيسة فى كنف رجل لم يكن من العدل أن يكو ن زوجاً لها .. كل يوم بمظالم جديدة تثير شفقتنا عليها حتى صرنا حماتها وقضاة خصوماتها مع زوجها .. فهو ان بخل مثلاً عن شراء شئ ترغبه أمددناها بالمال اللازم فإذا به يعود من إلتزامه صداقتنا وإحترامنا يسدد ذلك المال .. وعلى هذا النحو سارت الأمور إلى أن أصبح زوجها عجينة لينة فى يد سعيد يأتمر

بأوامره وينتهى بنواهيه ومن ثم إنتقل الحل والربط ليد سعيد وحده الأمر الذى إستدعى لمرات كثيرة إنتقاله وحده إلى بيتهما لمعالجة مشكلة طارئة أو الخروج معهما أو مع أحدهما تسليماً لإختياراته فيما يقدمون على شرائه .. آه .. أذكر الآن إنه منذ ذلك الوقت سمح لى بالقيام بالزيارات العائلية منفردة بل كثيراً ما وافق لى على البيات لدى والدتى !! .. كما أذكر - الآن ثانياً - إنه فى معظم المرات التى خرجت فيها منفردة أو بت لدى والدتى كان يخبرنى بأن صفاء قد حضرت ولما لم تجدنى إنصرفت !! .. وأذكر - ثالثاً - إنها لما كانت تغيب على ثلاثة أو أربعة أيام ويمنعنى سبب من الخروج كأن أكو ن متعبة أو لدى إصلاحات بالشقة مثلاً ، كنت ألح على سعيد أن يهب إلى بيتها ويحضرها وكان دائماً يستجيب لكنه يغيب رغم قرب الشارع الذى يقع فيه سكنها !! .. و .. هكذا كان من الطبيعى أن يسرى عنها بنزهة فى سيارته .. وأن تسمى وليدها الجديد باسم « سعيد » .. وأن تمازح زوجى فى حضورنا أنا وزوجها ..

استمرت صفاء صديقتى عشيقة لزوجى على مدى ثلاث سنوات .. تغاضبه فتحيله جمرة من نار ، وتصالحه فتجعله نسمة ناعمة .. وأنا المغيبة لم ألمس إنها كانت دائماً وراء موجات إرتفاع الضغط التى إبتلى بها مؤخراً إلى أن طرق بابنا شخص غريب ..

فتحت الباب فوجدته شاباً أنيقاً يصغرنا بقرابة عشر سنين ..

طلب لقاء سعيد .. إصطحبه سعيد إلى حجرة الصالون .. انتابنى شئ من التوجس فلزمت وراء باب الحجرة أتمسع حوارهما ـ كأن يهدد سعيداً بفضح أمر علاقته بصفاء عندى إذا هو عاود تعقبها ومطاردتها !! .. وسعيد يتوسل إليه أن يخفض من صوته وهو يعاهده بالإمتاع عن ملاحقتها ويقسم أنه من اللحظة قد محاها من ذاكرته !! ..

وما أن إنصرف ذلك الشاب حتى إستحال سعيد إلى جمرة نار فى موجة متعاظمة من موجات إرتفاع الضغط .. أحسسته كفتى مراهق حسمت لتوها علاقته بحبه الأول !! .. ساعدته ليتمدد فى فراشه ووافيته بالدواء .. و .. عندما عاد إلى إتزانه سألته :

ـ ما خطب ذلك الشاب الذى رفع منسوب ضغط الدم عندك ؟!

فعاد برأسه إلى الوسادة وراءه مسدداً نظره فى سقف الحجرة وقال وهو يحاول أن يجعل لهجته محايدة آسفة :

ـ أبداً .. هذا الولد هو عشيق صفاء « هانم » وقد جاء يطلب منى التوسط لدى زوجها حتى يتركها له فيتزوجها .. أليس هذا يمثل قمة الغرابة ويدفع بالإنسان ليفقد الثقة فى الآخرين .

فربت صدره بيدى وأنا أقول :

ـ نعم هو كذلك .. لكن ليس كل الآخرين .

* * *

ـ ١٥ ـ كيف تحصلين علي زوج

أقف أمام مرآتى فى إنفرادات كثيرة .. أتحسس قسمات وجهى .. هاتان عينان سوداوان واسعتان تحت جبهة مستديرة .. هذا أنف رومانى رقيق .. وهذا فم متوسط الإتساع له شفتان كريزيتان ،، وهاتان وجنتان مستديرتان صبوحتان .. وبشرة ناصعة البياض وشعر أدهم .. و .. و .. أراجع تكوينى .. ها أنا أنثى بمقاييس العصر .. و .. أحياناً تكون وقفتى أمام المرآة برداء النوم .. لكأن لسان حالى يلوك بشئ .. «يا لخيبة الرجال» .. فلطالما وقعت عيناى على شاب أو آخر وسيم يعامل زوجته أو خطيبته الصدأة وكأنها كونتيسة وهو سائق العربة الملكية .. وكثيراً ما سمعت عن نساء تخرج الواحدة منهن من زيجة لتدخل فى آخرى بسهولة إبدال زوج من الجوارب !! .

***

فى مجتمعنا لا يحق لفتاة أن تعبر صراحة عن أسفها لتأخر زواجها أو حتى استراق قطار الزواج محطته عندها .. لا أعرف من ذا الذى سلبها ذلك الحق . إذ ليس به نص قانون ولا قرار أو حتى لائحة أخلاقية .. هو عرف إجتماعى جائر سائر على بيوتنا من أرقاها وأغناها حتى أبسطها وأفقرها !! ..

بمكنة الشاب وهو بين والديه أو أقربائه وربما زملاء العمل أن يعبر بصوت يسمعه البشر والجمادات وسائر المخلوقات عن أسفه من كونه لم يوفق حتى اللحظة إلى الفتاة التى تناسبه زوجة .. وبمكنته أيضاً أن يعدد مسالب كل اللائى عرفهن أو فكر فيهن ولم يجد بينهن واحدة تناسبه ! . ونجدهم يشجعونه على مزيد من البحث عن العروس التى توافقه ويقدمون له النصائح من خبراتهم العملية .. أما الفتاة فعليها أن تلجم لسانها وتعوده ألا يلوك بشئ عن تمنيها الزواج اليوم قبل الغد مع إنها أمنية عايشتها كل أم قبل أن تتزوج ويلمسها كل أب فى كل مخلوق أنثى !! .. وعليها إن فاتها قطار الزواج أو كاد ، ألا تترجم إستياءها من ذلك عبارات صريحة أو فى سلوك تستدعى به وليفها الذى هو مازال فى علم الغيب . مع أنها تستشعر مع فوات كل يوم أن علوستها تجعلها عبئاً معنوياً عليهم !! .. ولنا أن نتخيل موقف أسرة من فتاتها إذا ما صرحت ببساطة عن مكنون نفسها قائلة : « نفسى أتجوز بقى » !! .. كما يفعل أى شاب ..

كنت قد بلغت الرابعة والثلاثين من عمرى يوم قادتنى فطرتى إلى هذه الحيلة أو إذا صح التعبير « الإكتشاف » .. الرابعة والثلاثين أى عانس تقريباً .. إيه ؟ .. ولماذا تقريباً ؟! .. فهل بقى فى العمر أكثر مما فات بالنظر إلى متوسط الأعمار فى مجتمعنا ؟ .. لنقل « عانس » ، ونضع تحتها ما شئنا من خطوط حمراء وسوداء وزرقاء أيضاً .. أما وقد إعتدت أن أؤرخ لنفسى بفترة تخرجى من المعهد العالى للخدمة الإجتماعية فإنى أستطيع الوقوف على أهم ما يميز المرحلة الفائتة والتى تعادل بالضبط دستة من السنين ! ..

تخرجت من المعهد وقد جاوز عمرى العشرين بعامين .. زامن إحتفالى بالحصول على البكالوريوس بتقدير جيد إحتفال آخر بإعلان خطوبتى و « عادل » زميل دفعتى والذى ربطتنى به فترة العامين الآخيرين من الدراسة علاقة عاطفية جميلة ومحترمة حفزتنا على أن نترجمها إلى زواج يضمن تعايش قلبينا وكيانينا معاً وحتى آخر العمر .. ومن ثم كانت أول خطوة لنا عند التخرج أن تقدم عادل لأسرتى يطلب يدى للزواج ..

يومها أسررت لأمى بأنه الرجل الذى يناسبنى ، وأن إتفاقاً بيننا على أن نضم أيدينا لنقيم بجهدنا المشترك ذلك البيت الذى يضمنا وفى الحقيقة - وأنا أتذكر ذلك جيداً - أن تمسكى بعادل لم يكن بباعث من العلاقة العاطفية وحدها فهى علاقة لم تعمق فى وجدانى بالحد الذى أستطيع أن أصفها معه بالقوة .. هو فقط إنسان

نقى طيب وسيم بينى وبينه قدر من التجاذب . إنما الباعث الأقوى كان هو ذلك التمنى الجميل الذى أظنه يداعب كل فتاة فى مقتبل عمرها أن تسبق إلى الزواج غيرها ..

عرس جميل . ثوب الفرح والطرحة . عش زوجية يضمها ورجل يوافقها وإستقلالية تضعها فى مصاف الأمهات اللاتى يديرون بيوتات .. نعم فقد كان حبى لفكرة الزواج أكبر من حبى لعادل .. حبى لعادل عمره عامان بينما حبى للزواج شأنى شأن كل الفتيات عمره يبدأ منذ تتفتح عيونهن ويرين أمهاتهن مثلاً وتلعبن مع صاحباتهن الصغيرات لعبة « ستات وامهات » !! .. المهم .. لم يقتنع أبى بمنطق أمى الدائر فى فلك رغبتى فى الإرتباط بعادل .. غير أنه فى النهاية وافق على أن تكون بيننا وبينه قراءة فاتحة فحسب لحين إنهائه فترة التجنيد الإجبارى .. وقد كان ..

وبعد شهور من إلتحاقه بالجيش كضابط إحتياط جاءنا نبأ إستشهاده أثناء مناورة عسكرية تدريبية .. لا أعرف لماذا وجدتنى لا أملك منطلقات حقيقية لإبداء حزنى البالغ على فقد رجل كان من الممكن أن يصير زوجاً لى ؟! .. ربما هو التحرج من أبى وإخوتى والرجل لم تربطنا به بعد علاقة مادية واضحة وثابتة .. محض رجل عرفناه كما نعرف جيراننا وزملاءنا ! .. ذلك كان السبب أم إنه إغترارى بصغر سنى بما يعنى أن ما فى عباءة الغيب

مازال كثيراً ويخولنى النظر للأمام لا أن تستوقفنى تجربة قصيرة محدودة ؟!! .. فبالفعل إتكأت على نصيحة أمى بأن ألقى بتجربتى البكرية هذه وراء ظهرى وألتفت لنفسى ومستقبلى و .. ربما ما كنت بحاجة لمثل هذه النصيحة !! .. (إننى أتحدث بصراحة عن مشاعرى الحقيقية) ..

أعايش مجتمعاً شعبياً بسيطاً .. بيت قديم فى حارة ضيقة متفرعة من شارع جانبى . والمثير للدهشة إنه لم يكن فى أوساط جيرتنا سواء فى البيت أوالحارة شاب واحد يناهزنى عمراً ويعادلنى فى المؤهل الدراسى .. يكبروننى بمسافة عمرية بعيدة أو يصغروننى .. والذين فى مثل عمرى هم من الشغيلة والحرفيين لا صلة لهم بالتعليم .. ومن ثم فقد كان تعيينى فى الهيئة العامة للتأمينات والمعاشات مبعث سعادة جمة لسببين .. أولهما إننى سأحتك بأناس آخرين فيهم الذين يماثلوننى عمراً وتعليماً .. وثانيهما هو إننى سأحتكم على مرتب شهرى أستطيع بجزء منه أن أقتنى الملابس والإكسسوارات التى تروقنى وتقدمنى لمجتمعى فى شياكة وأبهة أعتقد أنهما من عوامل الجذب مع السمات الخلقية والجسمية الطبيعية للمرأة ..

ومن المضحك حقاً أن معظم ظنى هذا قد خاب ،، إذ تم تكليفى بالعمل فى قطاع صغير يضم عدداً من عجائز الموظفين اللهم إلا شاباً واحداً عاد إلى العمل بعد تعيينى بأسبوع من أجازة زواج !! .

غير أن ذلك لم يصل بى مبلغاً من الإحباط .. فالروح الرياضية عالية مادام عمر الفتاة « حاجة وعشرين » .. مرحلة كلها تفاؤل يكتنفه الإعتقاد بأن الفرصة لابد مواتيه ربما مع كل نسمة هواء عابرة! ..

وما إن شارفت على الثلاثين حتى بدأ عقلى يطن طنات نحسة ماذا جرى بالضبط ؟! .. أأعجب أكثر زملائى فى المعهد وسامة ويختارنى دون الأخريات ثم عندما أخرج إلى مجتمع أرحب وفرص التعارف والاحتكاك فيه أوسع أجدنى لا أروق أحداً البتة ؟! لما كنت بفستانين بسيطين كان لى كل ذلك التأثير الذى ما بقى منه شئ وأنا أحتكم على صوان ملابس أبدل فيها كنجمات المجتمع والسينما ؟! ..

هل أغرقتنى السنوات الفائتة بمادة خافية فلا يكاد يظهر منى شئ فى أعين أحد .. هؤلاء الشبان الذين يصادفوننى فى إدارات العمل الأخرى. فى الأسانسير . على السلم . فى أتوبيس الهيئة . فى الشارع المؤدى لحارتنا والشوارع المجاورة .. كلهم عميان .. أو كلهم لا يروقهم فى شئ ؟!! .. أقف أمام مرآتى فى إنفرادات كثيرة أتحسس قسمات وجهى .. هاتان عينان سوداوان تحت جبهة مستديرة .. هذا أنف رومانى رقيق .. وهذا فم متوسط الإتساع له شفتان كريزيتان . وهاتان وجنتان مستديرتان صبوحتان .. وبشرة

ناصعة البياض وشعر أدهم .. و... و .. أراجع تكوينى .. ها أنا أنثى بمقاييس العصر .. و ..

أحياناً تكون وقفتى أمام المرآة برداء النوم .. لكأن لسان حالى يلوك بشئ .. «يا لخيبة الرجال» .. فلطالما وقعت عيناى على شاب أو آخر وسيم يعامل زوجته أو خطيبته الصدأة وكأنها كونتيسة وهوسائق العربة الملكية ؟! . . وكثيراً ما سمعت عن نساء تخرج الواحدة منهن من زيجة لتدخل فى آخرى وكأن الخروج من زيجة والدخول فى أخرى مسألة فى سهولة إبدال زوج من الجوارب !! .. أى ملكات يتمتعن بها تجذب الرجال نحوهن ؟! .. بل أى معايير تلك ينتقى بها الرجال حبيباتهم وزوجاتهم ؟! .. آه لو تسنى لى أن أفتح رأس وصدر رجل ! .. لكن أين هو ذلك الرجل الذى يلتفت لى من المبدأ حتى يمنحنى فرصة إستشفاف تلك المعايير التى يضبطون عليها أفئدتهم وعقولهم ؟! .. ثم .. أليس الزواج من سنة الحياة .. فكيف إذن تعطل الحياة سنة الحياة ؟! .. لماذا تقبل فوق ظهرها كياناً أنثوياً له متطلباته وإلحاحاته ثم تمنعها عنه وكأنها تستضيفه إستضافة شرفية ؟! .. إنها جد مسألة محيرة !! ..

ذات يوم .. وكنت قد بلغت الثالثة والثلاثين .. عدت من عملى فوجدت أمى وكأن الفرحة تحملها وتطيرها فى الهواء تطيرات غبطة وسعادة .. الشقة منظمة فوق العادة .. الصالون مفتوح وكأنه بعد طول جوع أستعد ليلتهم ضيفاً مهماً ! .. أول ما ارتأتنى

جذبتنى من يدى وأخذتنى وراء باب لتهمس فى أذنى بفحوى هذه الإستعدادات .. سيأتينا بعد ساعة شاب طيب صحبة جارتنا الست شفيقة .. عريس .. قالت عنه كل ما يسعد القلب .. على أية حال كل شئ يتبين لنا عند لقائه .. يارب .. يارب يكون من نصيبك ، سرت فى كيانى فرحة متوجسة .. أهكذا .. من كل الذين أراهم ويرونى كل يوم لا يتقدم أحد بينما يأتى الزوج المنتظر على السمع فحسب .. ما أعجب هذه الحياة ؟! .. ترى ما الذى أفقده الثقة فى عينيه ليسلم إختياره لعيون الجارات والمعارف تنتقى له عروسه ؟! على أية حال سوف نرى !! .

وحضر العريس صحبة شقيقته الكبرى وجارتنا الست شفيقة .. إستقبلهم أبى وأمى وشقيقى الذى يصغرنى مباشرة .. بعد وقت إنضممت إليهم .. طال الحوار .. العريس يصغرنى بثلاثة أعوام كاملة .. موظف بمؤهل عال فى وظيفة حكومية .. يرجو أسرة طيبة وعروساً واعية بالظروف الإقتصادية للمجتمع وخاصة ظروف موظفيه المتعلمين . تقبل أن تكون الشبكة مجرد دبلتين .. والأثاث مشاركة على أن تضطلع العروس بحجرة النوم بينما يضطلع هو بحجرة الصالون ! .. وعن الشقة .. فهى أيضاً ستأتى مشاركة ؟! .. و ..

كلما توقف الطرفان عند نقطة من الإتفاق يتفاصلان فيها إشارت شقيقته ـ التى بدت جاهلة ومكشوفة الوجه فى آن واحد ـ

إلى أن فارق السن لا يقدم ولا يؤخر فى مثل هذه الأحوال مادام هناك الوفق بين الطرفين .. وكان من الواضح تماماً إنها تعنى بالوفق المزيد من التنازلات من قبلنا فى مقابل تغاضيهم عن فارق السن !! .. وفى كل مرة كان يذعن أبى وأمى وينتقلان إلى نقطة أخرى وتتكرر صيغة الحوار .. إستبد بى الضيق لما أحسست إننى بمثابة يد موجوعة فى جسد أبى تضغط عليها تلك المرأة الغبية ليستسلم ! ..

أشفقت على أبى وأمى من الرضوخ لإنتهازية الضيوف .. .. تملكتنى جرأة المستغنية .. تدخلت موجهة حديثى للعريس بعد أن طلبت من شقيقته أن تصمت هى وتدع الحوار يجرى بينى وبينه على مرأى ومسمع الجميع .. قلت له : « كم من المال أعددت لمشروع زواجك ؟ » كأنه فوجئ من سؤالى المباشر .. أكتفى بإبتسامة سمجة !! .. إستمررت : « أريد [illegible] واضحة [illegible] .. لو أن تحت يدك مبلغ من المال فتعال به لنضع مثله فى مقابله ونشترى الشقة .. قل .. كم أعددت من المال لزواجك ؟! .. إرتبك حاولت شقيقته أن تتدخل . منعتها .. قال : ليست كل البدايات بمجمد مالى .. أملك مرتبى .. وأنت موظفة وأنا موظف .. أنك تعرفين الحال كما أعرفه » !! ..

أحسست بالمهانة .. فهذا الرجل وشقيقته ما حضرا إلا ليصطادا فريسة جريحة فى الأصل حسب ما صورت لهم جارتنا الطيبة !!

.. وأنا لا أقبل لنفسى دور الفريسة الجريحة هذا .. أما أبى وأمى فلن يكونا أكثر شفقة على منى عليهما فى مثل هذا الموقف الرذل نهضت موجهة كلماتى لأبى على مسمع من الجميع : « أبى .. هذا الرجل لا يناسبنى .. ليكون لقاؤكم الآن لأى شئ آخر غير أمر زواجى .. أرجوك يا أبى » .. وإنصرفت إلى حجرتى أدس رأسى فى وسادتى ..

أن ذلك الموقف على قدر ما كانت وطأته رذلة على نفسى فى وقته ،، إعتبرته فيما بعد نقطة تحول جوهرية فى حياتى . لقد تملكنى خجل شديد ألجم لسانى عن مشاركة أبى وأمى فى حواراتنا العائلية العادية بل حرمنى مجاوبة أطلالة فى وجه أى منهما !! .. و . تجاوزت سيطرة ذلك الخجل على نفسى حدود البيت فى تخيل أن كل الذين يعرفوننى قد عاصروا الموقف إياه ورأوا كيف كنت بمثابة يد أبى الموجوعة التى تسلمه إلى الجور بنفسه وبأسرته التى فى عنقه ؟! .. ظللت لمدة أسبوع على هذا النحو .. معظم أوقاتى إنفرادات بنفسى .. وأخيراً خرجت بقرار .. هذا المجتمع لابد وأن أبدله !! ..

إستسمحت أبى أن يدعنى أتصرف على نحو ما يرضينى .. سافرت إلى عمى فى الإسكندرية .. رجوته أن يقبل إقامتى لديه لفترة تطول .. رحب بذلك .. من اليوم التالى خرجت أبحث عن فرصة عمل فى منشآت القطاع الخاص .. وجدتها .. فى مصنع

إستثمارى للملابس الجاهزة .. قسم التأمينات .. إنتظمت فى العمل بعدما ظفرت بأجازة بدون مرتب من عملى الحكومى بموجب عقد المصنع الإستثمارى .. بعد شهر واحد فى عملى الجديد طلب المهندس ماهر صاحب المصنع موافقتى على الزواج منه !! .. قال وقد شرع يقدم نفسه : أمضيت سنوات عمرى العملية فى الخارج .. عدت خلالها إلى مصر ثلاث مرات .. فى كل مرة كنت أبدأ مشروع زواج بخطوبة تفشل قبل أن أعود لمهجرى .. لم تكن نفسيتى أو ظروفى مستقرة .. الآن إستقررت فى وطنى وقد لاحظتك كثيراً وشغفت بك .. أتغفرين لى أنى أكبرك بخمس سنوات ؟ ..

قولى نعم لأقيم لك حفل زفاف أسطورياً أيتها الفتاة الجميلة الرزينة التى إدخرها لى القدر !! .. وقد كان ...

وفى يوم قرأت فى أحد الكتب القديمة أن رجلاً قد إنتقل للإقامة فى مدينة أخرى لأجل أن يوفر لإبنتيه فرصتى زواج لم تتوفرا لهما فى مدينتهم التى هى مسقط رأسهما .. لكأنى فعلت بفطرتى نفس ما فعله ذلك الرجل بوعيه وإرادته .. حقيقة ليس بالضرورة أن يكون الرجل الذى ينجذب إلى قد إنخلق معى فى نفس المكان فماذا كنت إنتظر من مجتمع عايشته أكثر من ثلاثين عاماً ولم يقدم لى زوجاً ؟! .

■ ١٦ ■ علمتنى الدنيا

كنت أعرف دوافع كل هذا التعبد فى محراب الحب .. إنه ضعفى وضعفه .. ضعفه الذى يتحد مع كل ما يراه جميلاً فى .. ضعفى لأنه يرغب فى إمرأة هى فى أمس الحاجة إليه .. فزوجته التى هى المرأة الوحيدة فى حياته تفوقه قوة ونفوذاً .. هى التى صنعته .. كل ذى نفوذ يخضع لذى نفوذ أقوى وأكبر .. صار يكره سيطرتها وسطوتها .. يمقت إستغناءها .. يؤثر أن تحتاجه أنثى .. تخضع له . يغنيها هو ويسعدها .. وهى أنثى أجمل من زوجته .. ولإستحالة أن يتزوجنى والحال هكذا تعاظمت سطوة العشق على فؤاده .. فالعشق أنانى لا يحتمل حلاً وسطاً . ينشد الإحتواء كاملاً .. الإمتلاك الدائم ..

***

فهمت الدنيا من خلال موقف نفسى .. نعم .. كل ما فى الأمر

إننى قد فهمتها أو وعيتها أو حسبتها وقدرتها من خلال موقف نفسى .. فالدنيا فى الواقع كما الأشخاص يحكم العلاقة بها إلى حد كبير الإنطباع الأول .. ألسنا نلتقى أحياناً بإنسان لأول مرة فيلقى قبولاً عندنا ونرتاح له فنعامله على طبيعتنا ؟ .. هذا يحدث .. ويحدث أيضاً أن نلتقى إنساناً آخر لأول مرة ويستحيل علينا قبوله أو نلتزم التحسب له ونتصور أنه لو فرضت معاملة بيننا وبينه فسيكون ذلك فوق طاقتنا .. هكذا وسواء من قبل أن ينطق بكلمة أو كان لقاؤنا الأول به وهو فى موقف فرض عليه من خارجه ، كأن نراه طرفاً فى مشاجرة لسنا كفءً لتحرى الظالم والمظلوم فيها .. أو كان حذاؤه موحلاً .. أو إحدى عينيه متورمة من « دمل » عارض !! .. ويستمر إنطباعنا الأول عنه يحكم طبيعة علاقتنا به والحقيقة أن مسألة الإنطباع الأول هذه مسألة ظالمة إلى حد كبير . لأن الفارق الفاعل فيها دائماً هى نفسياتنا وأمزجتنا لحظة تكوين الإنطباعات الأولى .. و .. هذا عن أشخاص يتواردون على حياتنا بعضهم يروح وبعضهم يجيئ .. فما بالنا بالدنيا المداومة !! .. منذ تتفتح عيوننا حتى نرحل عنها ؟! ..

كنا خمسة .. أربع بنات وولد يصغرنا .. ترتيبى بينهم كالأصبع الوسطى بين الأصابع فى الكف .. و .. أم جذورها شعبية بسيطة وأب حرفى يتكسب قوتنا بالكاد . كل ما يميزنا عن بسطاء الحال من أمثالنا هو أن وجودنا جاء فى شقة واسعة من الطرز القديم ذى الأسقف العالية والحوائط المتباعدة ، ورث والدنا

حق إيجارتها بحكم أنه الذى بقى يقيم مع والده بعد زواج أخوته .. ميزة حقيقية صادفتنا .. فلو أن تدبير سكن لنا جاء على عاتق والدنا لكان أسكننا جحر فأر !! .. و .. أى ميزة يحسد عليها صاحبها .. حقيقة أن البعض يكتفى بطى صدره على خاطر حاسد لكن هناك أيضاً الذين يتجاوز حسدهم حدود ذواتهم وينطلق يعبث بين الناس بهم وكأنه قدر زائف آثر إعادة توزيع الثروات والأرزاق !! .. وبالبغاضة تصور الحسد يضطلع بتقييم من يستاهل النعمة ومن ذا الذى يجب أن تمنع عنه ؟! .. بل ويتخطى مهمة التقييم إلى العمل الدءوب على إنتزاع النعم والمنن الإلهية من أيدى الذين يراهم ليسوا أهلاً لها من منظوره ؟! .

منذ صغرى وأنا أعرف بالسمع من حوارات أبى وأمى أن صاحب البيت يطمع فى شقتنا ويتمنى أن يجد وسيلة ينتزعها بها منا ، وكثيراً ما قامت بينهم مشاجرات على أسباب واهية لكنها تخدم فى الواقع السبب الأساسى .. و .. وقت صرت فى بداية مرحلة الدراسة الثانوية ، صار أبناء صاحب البيت شباباً بينهم الضابط والمحامى والتاجر .. واشتد الصراع بينهم وبيننا على الشقة يضايقوننا حيناً ويدفعون ببعض جيراننا للقيام بذات المهمة حيناً آخر .. المهم أن نصبح على خلاف مع كل ما حولنا حتى الهواء الذى نتنسمه أن إستطاعوا لذلك سبيلاً . فالشقة فى الطابق الأول والبيت يحتل ناصيتى شارعين عموميين وهم يرغبون فى جعلها مقراً لشركة يؤسسونها !! ..

ومن موقف خلافى مفتعل تصاعدت الأمور وصرنا بقدرة شيطان الطرف الجائر المشكو فى حقه أمام ضابط المباحث فى قسم الشرطة .. كنت قد بدأت أتخذ واجهة لأسرتى البسيطة ولسانها المحاور لكونى الوحيدة التى سلكت طريق التعليم من بين أخوتى .. وقفنا أمام الضابط والطرف الآخر جلوساً .. إسلوبه غير حيادى .. أسئلته تهكمية إستفزازية .. إغتظت .. قلتها فى مواجهته :

- أنت متواطئ معهم . . فكيف نتوقع منك عدلاً ؟ .. لماذا نقف ويجلسون ؟! .. لماذا معهم شهود وشهودنا يجبنون ؟ ..

أحمر وجهه من الإنفعال وكان أبيض البشرة مصفر الشعر والشارب فبدأ فى ناظرى كأحد ضباط الإحتلال الإنجليزى الذين حكموا بالإعدام على أولاد البلد من المصريين فى حادثة دنشواى كما تصورهم الكتب والأفلام !! .. لم يطق صبرا على صراحتى وإستشفافى حقيقة الموقف .. إنفلت من وراء مكتبه ليوجه صفعة على وجهى وهو يتوعدنى بأسوأ معاملة وأشر عقاب !! .. يومها عدت إلى البيت حزينة منكسرة .. وما إن إنفردت بنفسى حتى تنازعتنى خواطرى .. هذا الذى حدث فى أول مواقفى الحياتية ذوداً عن حق أكيد مؤكد وبعيداً عن المثل والقيم التى تترع بها الكتب وكل ما يطن فى مسامعى عن المساواة والأمن والأمان والعدل و .. و .. وملخص شديد الإيجاز لجوهر الحياة .. قوة تتحصن بالمال والنفوذ ، وضعف عار من عنصرى الحصانة هذين

ليحيا الضعفاء لابد وأن يستلهموا ويتلمسوا أسباب القوة أو ليبأسوا ويخضعوا ويحضنوا الضعف ويقبلوا أن يداسوا بالنعال .. و ..

تمنيت فى خيالى أن يسبق أخونا الصغير أعمارنا ويكبرنا ويصبح ضابطاً أو قاضياً أوبلطجياً يتحاشى الناس شره !! .. لكأنى لم ألتمس فى نفسى أو فى إحدى شقيقاتى أملاً فى قوة تستر ضعفنا وتحمينا .. فأى قوة وكلنا سنصير نساء ، وحتى أنا بما قد أناله من مؤهلات علمية لن تؤهلنى لأن أكون قاضياً أو رئيس نيابة أو ضابط مباحث كالذى لطمنى على وجهى وذبح كبريائى !! ..

وظللت لفترات طويلة أستشعر الضعف فينا نقيصة مميتة .. وتيقظنى من نومى كوابيس رذلة أرى نفسى فيهما قاتلة ترشق سكيناً فى ظهر الضابط إياه .. أو أشعل النار فى بيتنا من أساساته وحتى آخر طابق فيه لتتشوى جلود صاحب البيت وأولاده وجيراننا المنافقين .. أو أسرق المدفع الرشاش عهدة الجندى حارس البنك القريب من بيتنا وأحصدهم جميعاً برصاصاته السريعة الغزيرة فينتشرون على الأرض فى نهر الطريق أمام البيت كحشرات داستها أقدام المارة !!! .. أنهض من كابوسى فأجد فكى يتضاغطان بعنف وأذنى كأنهما سدتا بحجارة!!..

بمضى سنوات قليلة تبدلت أشياء كثيرة ... تزوجت شقيقاتى . توفى والدى وبقيت أنا وأمى وشقيقى الذى أحترف حرفة أبى بينما

حصلت أنا على بكالوريوس التربية الرياضية .. حسمت الصراع على الشقة بأن قبلت مبلغاً محترماً لقاء تركها فاشتريت به شقة تمليك صغيرة ضمتنا أنا وأخى وأمى التى لم تلبث قليلاً وتوفيت هى الأخرى .. لم ينتابنى أى قدر من القلق لتأخر زواجى عن شقيقاتى حتى التى تصغرنى رغم إنى أجملهن على الإطلاق والوحيدة المتعلمة فيهن .. فالزواج لم يمنع نفسه على ، بل ظل طويلاً يوقف قطاره فى محطتى وأرفض أنا الركوب .. ليس لسبب غير أنى لم ترقنى زيجات شقيقاتى .. زيجات « عبيطة » من رجال بسطاء ضعفاء مثلنا يشكلون معهم متوالية الضعف المقيت .. وأنا .. أرفض ذلك .. أرفض أن أضم ضعفى لضعف رجل يحتسب حمايتى وأمنى بينما أداس أنا وهو ونسلنا بنعال الأقوياء !! فمنذ خرجت صغيرة للعمل خلال العطلات الصيفية بالورش والمصانع الصغيرة والبوتيكات حتى كبرت وإحترفت أعمال السكرتارية فى مكاتب مديرى الأعمال الخاصة والكثيرون يخطبون ودى ويرغبون فى الزواج منى ... لكنهم دائماً من الذين يفتقدون لأسباب القوة بمعيارى أنا أو بمعنى أصح بمعيار موقفى النفسى من الدنيا .. حتى أولئك الذين يمتهنون أعمالاً متميزة أدبياً كالمهندس والطبيب لم تكن لتغرينى مسميات مهنهم ولا إسلوب حياتهم الحضارى الذى يميزهم أناساً وادعين تغلب عليهم المسالمة والإنفصال عن الواقع بحذافيره !! ..

أريد رجلاً من هذا العصر وابن أخلاقه الحقيقية ، له من المنعة ما يصد جور الجائرين فأسعد تحت مظلته بممارسة كافة شئونى الحياتية مطمئنة هانئة .. حقيقة قد صاحبت وخاويت وتحاببت وكثيرين .. وإستفدت كثيراً من كل نفوذ محدود لأحدهم كأن انضم بواسطته لعضوية أحد الأندية الراقية أو أحصل على مطلوباتى المختلفة بتخفيضات هائلة أو أحصل على خطى تليفون لمنزلى بتجاوز كل العراقيل والمعوقات الإدارية التى تمنع أو تؤخر ذلك .. لكنى عندما تتحول رغبة الطرف الآخر إلى زواج أرفض وأمتنع فلست بحاجة لنفوذ محدود من إنحصاره فى خاصية محددة .. أتوق لقوة جامعة شاملة .. كقاعدة مالية تشترى نفوذ أصحاب النفوذ . أو نفوذ من موقع سلطوى يستجلب الوفير من ماليات أصحاب القواعد المالية الذين يتهافتون كالذباب على أصحاب النفوذ .. و .. وجدتها .. وجدت هذه القوة الجامعة الشاملة فى «عاطف» .

كنت قد بلغت الثالثة والثلاثين .. لكنى كنت أشعر بأن تجربتى الحياتية تعادل عشرة أمثال هذا العمر !! .. ذلك من خبرتى بنفسى وبالناس .. فمن وفرة إنفراداتى بنفسى أكاد أكون قد وضعت يدى على كل ذرة فى نسيجها .. ميزاتها وعيوبها .. كيف تتفاعل مع الأحداث وكيف أتحكم فى هذه التفاعلات .. ماذا أعطيها لتنتج ما أريد ... صرت ككيان مبرمج .. جعلت من نسيج نفسى برنامجاً

كالبرامج الكمبيوترية تخدم وتحقق أهدافى المحددة .. و .. من كثرة تعدد الناس على ساحتى إلتمت فى إعتقادى أنماط محددة يتشكل منها مجموع الناس ، فلا يكاد يخرج إنسان ألتقيه أو أراه عن نمط من هذه الأنماط .. أستطيع ببساطة وربما من إطلالة واحدة أو التركيز فى صوت محدثى أن أستدل مثلاً على أن كان إنساناً هوائياً أو صاحب عواطف ثابتة فى إتجاهاتها .. بخيل أو يعطى بمقابل .. سخى وعند أ ى مستوى فى العلاقة يغدق فى العطاء .. شهم بحق ومقدام أو متخاذل عند المحكات الحقيقية .. تقوده غرائزه أم هو عاطفى إلى حد البكاء من ألم الحب ؟! .. و .. و .. وكثيراً ما كانت توقعاتى فى الأشخاص صحيحة !! ..

فى تلك الفترة تعرفت بعاطف .. سيرته سبقته إلى .. فكثيراً ما كان مادة حديث مجموعة أو أخرى من الأعضاء أجالسها فى النادى .. عاطف رجل مهذب . مليونير . متواضع . علاقاته كثيرة وقوية . ما من أحد لجأ إليه إلا وأعانه على تحقيق مطلبه .. تدبير وظيفة متميزة . علاج مشكلة مع الشرطة أو فى أى مرحلة من مراحل التقاضى .. التوصية عند طبيب لامع .. كما أنه سخى فى عطاءاته وهداياه لأصحابه ومعارفه . لم تتواتر عن سلوكياته أية حكايات شائنة .. لم أكن ألتقيته مواجهة حتى ذلك الوقت لكنى إزاء ذلك الذى سمعته وجدت ميلاً شديداً فى نفسى للتعرف عليه رحت أرصد تحركاته من بعيد .. وفى مرة كنت الجمهور الوحيد الذى يتابع مباراة متواضعة الأداء فى التنس بينه وبين إحدى

العضوات .. كلما سدد ضربة يمم وجهه لناحيتى وكأنه يبحث فى وجهى عن إنطباعاتى على أدائه وبعد وقت أحسسته منشغلاً تماماً بوجودى .. عندما إنتهت المباراة تسللت إلى الكافتيريا دون أن ألتفت ورائى .. شئ ما فى ضميرى كان يحدثنى بأنه سيعود من حجرة الملابس ليبحث عنى ! .. و .. فجأة وجدته أمامى وكنت قد تعمدت أن أجلس منفردة .. هى ذاتها ابتسامته الودود أطالعها فى وجهه .. ببساطة وألفه سألنى :

ـ هه .. ما رأيك فيما شاهدت ؟

ـ (تمالكت وقلت :) معقول ..

ـ يعنى مش كويس .. على أى حال أنا ينقصنى معرفة الكثير من وقواعد اللعبة .

ـ ولماذا تعتقد أن تقييمى لأدائك سيكون صحيحاً ؟

ـ لا أعرف .. مجرد إحساس .

ـ فعلاً .. إحساسك صادق فـ ... أنا فى الأصل متخرجة فى كلية التربية الرياضية .

ـ ياه .. أقسم إننى لم أكن أعرف عن ذلك شيئاً .. لكنه إحساسى وحده ..

من بداية تجاوبى معه كان قد جلس على المقعد المقابل لى .. تواصل الحوار بيننا .. أعرف تماماً تأثير أن تجعل إنساناً يعتقد أنه مشهوراً بما فيه الكفاية يقدم لك نفسه .. أن ذلك يربكه وينقل إليك

السيطرة على الموقف وتوجيه دفة الحديث .. لذلك أدعيت عدم معرفة شئ عنه أو سيرته فى النادى .. قدم نفسه : عاطف خليل رجل أعمال. أشتغل فى تجارة إكسسوار السيارات . متزوج ولى طفل وطفلة ... وقدمت نفسى : صفاء . بكالوريوس تربية رياضية منذ تخرجت أعمل فى أنشطة أخرى . الآن مديرة مكتب رئيس إحدى كبريات شركات الإستيراد والتصدير . آنسة بسبب إنشغال وقتى وعدم إقتناعى بكل الذين تقدموا للزواج منى و .. تحولنا بالحديث إلى لعبة التنس مرة أخرى .. أشار إلى أحدهم . طلب ورقة وقلماً .. سرعان ما كانت الورقة أمامى والقلم فى يدى أرسم نموذجاً مصغراً لملعب تنس وأشرح عليه قواعد اللعبة وبعض فنونها عرض أن يتلقى تدريباً عملياً منى مرة كل أسبوع بأى مقابل مادى .. أصررت على أن يكون ذلك فى إطار الزمالة بيننا فى عضوية النادى .

وبدأنا مشروعنا التدريبى الذى قادنا بالتدريج إلى علاقة حميمة ألزمتنا لقاءات يومية ومحادثات تليفونية طويلة فأصبح كل منا يعرف كل شئ عن الآخر ويعامله بدلال المحبين المتيمين كاملاً حتى أنه بدافع من غيرته دفعنى للتنازل عن وظيفتى التى تضعنى تحت أمرة رئيسى فى العمل وألحقنى بعمل آخر كمدرسة بإحدى المدارس الخاصة القريبة من مقر شركته كما أصبح يقضى أغلب أمسياته فى البيت عندى .. عشت أسعد ثلاث سنوات فى حياتى . فما أجمل من أن يشعر الإنسان أن كل شئ بمكنته ؟! . المال

والخدمات من كل نوع .. السفر للخارج وبأكثر الوسائل راحة وأسرعها .. لقد أحال شقتى إلى جنة ناعمة .. أثاث فاخر وأرقى الكماليات .. أشترى لى سيارة صغيرة .. أجمل الأزياء وفق أحدث خطوط الموضة ..

كل ما رجوته من خدمات تحقق كما لو كنت أملك لذلك عصا سحرية .. إلحاق أبناء شقيقتى الكبريين بأكثر الهيئآت إحتراماً ونفوذاً .. علاج إبنة إحدى شقيقاتى عند أكبر أساتذة الطب .. تدبير وظيفة لشقيقى فى أحد المصانع ما كان ليحلم بها .. بينما كان ذلك العملاق الساحر الذى يملك بين أصابعه مفاتيح كل تلك الجنان يضع رأسه فوق ركبتى ويبكى بحرقة من ألم الحب !! .. ويقف بين يدى يتوسل أن آمره بشئ .. يقبل كفى كأنه يضع روحه بينهما .. يتهافت لزفرة من أنفاسى يستنشقها فيملأ بها رئتيه وكأنها أكسوجين الحياة له أو هكذا يقول !

كنت أعرف دوافع كل هذا التعبد فى محراب الحب .. أنه ضعفى وضعفه .. ضعفه الذى يتحد مع كل ما يراه جميلاً فى .. ضعفى لأنه يرغب فى إمرأة هى فى أمس الحاجة إليه .. فزوجته التى هى المرأة الوحيدة فى حياته تفوقه قوة ونفوذاً .. هى التى صنعته .. كان طالباً فقيراً فى كلية الآداب وينتظم فى العمل بمتاجر والدها وأشقائها .. أحبوه لخفة روحه ووداعته ونشاطه فى العمل ... بل ربما اعتبروه فأل خير منذ إلتحق بالعمل لديهم. أحبته إبنتهم .. لم يكن يحبها بقدر ما أحب إسلوب حياتهم

ورفاهيتهم .. تمسكت به .. زوجوهما فأصبح واحداً من العائلة يعمل بروح الشريك ..

يوم مات الرجل الكبير خرجت زوجته بنصيبها فى التركة لتقيم شركة باسمها يديرها هو .. أن نفوذه فى الواقع يستمده منها ومن نفوذ عائلتها .. أى مواجهة معهم لابد وسيكون الخاسر فيها فليس هناك نفوذ مطلق .. كل ذى نفوذ يخضع لذى نفوذ أقوى وأكبر .. صار يكره سيطرتها وسطوتها .. يمقت استغناءها .. يؤثره أن تحتاجه أنثى .. تخضع له . يغنيها هو ويسعدها .. وهى أنثى أجمل من زوجته .. و ..

لإستحالة أن يتزوجنى والحال هكذا تعاظمت سطوة العشق على فؤاده .. فالعشق أنانى لا يحتمل حلاً وسطاً .. ينشد الإحتواء كاملاً الإمتلاك الدائم .. التوحد .. الإنصهار . الإبتلاع .. و .. لاعتبارات كثيرة يتعطل الإنصهار والإبتلاع فتزيد صرعة العشق فى داخله إعتمالاً وإصراراً وتمسكاً ..

المهم .. إستمررت فى هذا النعيم الموقوف إلى أن طرأ جديد .. عرفت زوجته بأمر علاقتنا .. لا أعرف حتى الآن كيف تسنى لها ذلك ؟! .. إنكمشت الدنيا فى ناظرى .. تلخصت فى مساحة شقة صغيرة مقفلة النوافذ وموصد بابها بإحكام على .. الخوف آفة لعينة كثيرون لاحظتهم يراقبوننى .. أمتنع على عاطف تماماً بينما ظل صوتها يطاردنى فى التليفون « سوف تموتين يا حقيرة .. لا . بل

سوف أجعل رجالى يحرقون وجهك وجسدك بماء النار لسوف أجعلك تندمين على مجرد التفكير فى انتزاع شئ منى ، .. اسودت الدنيا فى عينى .. صرت أخاف أن أطأ أرض الشارع .. أحسست أن أحداً لن يستطيع أن يجيرنى من هذا الشر المحدق بى .. أيقنت كم أنا بالفعل ضعيفة .. بل لست وحدى الضعيفة .. كل أصحاب النفوذ الذين فوق نفوذهم نفوذ !! ..

فى تلك الأثناء وبغير أى تمهيد وافتنى العناية الإلهية بطوق النجاة .. فقد كنت كمن يكابد سكرات الموت غرقاً .. زارنى الإبن الأكبر لشقيقتى صحبة رئيسه فى العمل .. رجل متواضع الهيئة .. طيب .. ارتآنى مرة من قبل .. يكبرنى بخمس سنوات .. أرمل .. يطلب الزواج منى .. وافقت .

الآن وأنا زوجة لرجل طيب مسالم .. وأنا أم لطفلين .. وأنا أشارك زوجى أهتماماته وفى مقدمتها القراءة والإطلاع أستطيع أن أقول إننى قد وقفت على الحقيقة .. أن أخطر ما قد يعترض حياة إنسان هو أن يتفهم الدنيا من خلال موقف نفسى . فكم أضعت من سنين عمرى فى سلوك جانح متطرف ما كان ليثمر غير الأشواك فى طريقى ويجلب الدمار لى ولغيرى .. الخوف نازع صحى لم يكن ليتنازعنى وحدى .. كل الناس يخافون ومع ذلك يتعايشون .. كل الناس يظلمون ويظلمون وإلا ما وجد الشر مكاناً على وجه الأرض .. وسيظل الإنسان يتلمس الأمن فى الحياة .. كل بالسبل التى يعتقدها وتعلمها .

صدر للمؤلف

* بائع الأحلام — دار ثابت للنشر بالقاهرة
* اعترافات نسائية
* اغرب طرق زواج — دار المشرق العربى بالقاهرة
* الحرب على الشيطان
* اغرب خصال العباقرة والمشاهير — دار الكتاب العربى بالقاهرة
* آخر يوم فى حياة مواطن
* الاختيار الجنسى والخلقى للزواج — دار النشر هاتييه بالقاهرة
* العلاج الربانى لمرض العصر النفسانى : (المال ، الجاه ، الجنس)
دار الروضة للنشر والتوزيع
* العديد من القصص والمقالات السياسية بالصحف والمجلات المصرية والعربية .
* تأليف نص وأشعار مسرحية ، انتوفين ياعرب ، للمسرح الحديث ... والعديد من المسرحيات قيد التنفيذ .